BOBST LIBRARY
3 1142 01412 3932

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
DUE DATE JAN 22 2002 Bobst Library Circulation	Bobst Library OCT 29 1996 CIRCULATION NOV 20 REC'D	

Elmer Holmes Bobst Library New York University

dP Ghazzālī
/al-Ḥikmah fī makhlūqāt Allāh /

مقدمة الكتاب

بقلم الأستاذ الحكيم فيلسوف الشرق والإسلام

طنطاوى جوهرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

أما بعد ، فقد اطلعت على كتاب الإمام الغزالى المسمى : « بالحكمة فى مخلوقات الله » فأدهشنى مافيه من العلم الذى لم يكن منتشراً انتشاره فى هذه الأيام ، وكيف بحث فى النبات ودقائقه ، والحيوان ورقائقه ، وغرائب هذه المخلوقات الدقيقة من الحشرات ، وما أودع الله فيها من عبر ، والحق يقال : إن الانسان ليدهش حينما يرى أن هؤلاء العلماء منذ ألف سنة يشرحون هذه العجائب ، و إن كانت صورة مصغرة لما ظهر فى هذه الأيام ، وكيف دهش علماء الغرب فى عصرنا مما دهش منه الامام الغزالى وأمثاله رحمهم الله تعالى وكيف نرى [برجسن] الفيلسوف الفرنسى الذى ظهر فى زماننا هذا دهش من دقائق الحشرات وعجائبها ، وكيف نرى الاتقان والابداع فيها ، ثم كيف نرى فلاسفة الألمان فى القرن العشرين لما بحثوا قضايا [داروين] و بعض العلماء قبله فى النشوء ، وكيف يقولون إن حشرة « أبى دقيق » التى تعيش فى أول حياتها دودة ، ثم تكون بعد ذلك حشرة تامة تخرج من عالم الأرض إلى عالم الهواء فى أيام معدودة ولم تحتج فى هذا الانتقال إلى ملايين السنين .

ثم ماهذه العواطف والغرائز المودعة فيها ، ومن أين أقبلت ووضعت فيها ؟ وكثير من الحشرات تخلق وهى لاعلم لها بما صنع أبواها من قبلها لأنها تموت

BP
166
.23
G48
1978
c. 1

قبل خلقها .

وانتهوا إلى أن هذه العجائب تقضى على ماذهب إليه علماء القرون السابقة على القرن العشرين مثل [لامارك وداروين] .

و إن هذه القضايا لايساعدها العلم اليوم ، وأيقنوا بقوّة فوق هذه المشاهدات تحدث فيها هذه العجائب . أما تلك القضايا فقد ظهر عجزها عجزاً تاما بل قال بعضهم : انها لاتعدو خرافات العجائز وكلام المراضع .

وهنا أخاطب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فأقول : ادرسوا هذا الكتاب وأمثاله ، واعلموا أن هذه الحكمة هى التى حثّ عليها القرآن فى نحو سبعمائة وخمسين آية ، وانظروا كل مادوّنه علماء الأمم فى هذه الحكمة العجيبة .

لاعذر للأمم الاسلامية بعد اليوم ، فهذه العلوم فرض كفاية ، ودراستها نوع من آية شكر الله تعالى ، وازدياد لمعرفته وحبه تلك الزيادة هى التى أمرنا الله بها ، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (وقل ربّ زدنى علما) .

١٣ ذو القعدة سنة ١٣٥٢ هـ

طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

#101412393 2

JUN 22 1989

فهرست الكتاب

صحيفة

٢ خطبة الكتاب

٣ باب : التفكر فى خلق السماء وفى هذا العالم

٤ باب : فى حكمة الشمس

٧ باب : فى حكمة خلق القمر والكواكب

٩ باب : فى حكمة خلق الأرض

١٣ باب : فى حكمة خلق البحر

١٤ باب : فى حكمة خلق الماء

١٦ باب : فى حكمة خلق الهواء

١٨ باب : فى حكمة خلق النار

١٩ باب : فى حكمة خلق الانسان

٣٤ خاتمة : لهذا الباب

٣٧ باب : فى حكمة خلق الطير

٤٢ باب : فى حكمة خلق البهائم

٤٩ باب : فى حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت ودود القزّ والذباب وغير ذلك

٥٥ باب : فى حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم

٥٧ باب : فى حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

٦٣ باب : ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب

(تمت الفهرس)

الحكمة في مخلوقات الله
عزّ وجلّ

تأليف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م رقم ٥٢٣

قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى جعل نعمته فى رياض جنان المقربين ، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين ، وجعل التفكر فى مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين فى قلوب عباده المستبصرين ، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه ، وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحدوه ، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه ، فهو القيم بالقسط فى جميع الأحوال ، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال ، فعلموا أنه الحليم القادر العليم ، كما قال فى كتابه الكريم ، شهدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلا هو والملائكةُ وأولوا العلم قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هو العزيز الحكيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وامام المتقين ، وشفيع المذنبين محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه وشرّف وكرّم الى يوم الدين .

(أمابعد) يا أخى وفقك الله توفيق العارفين ، وجمع لك خير الدنيا والدين ، انه لما كان الطريق الى معرفة الله سبحانه والتعظيم له فى مخلوقاته ، والتفكر فى عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمة فى أنواع مبتدعاته ، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين ، وفيه تفاوت درجات المتقين ، وضعت هذا الكتاب منبها لعقول أرباب الألباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التى يشير اليها معظم آى الكتاب ، فان الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحى وأمر أربابها بالنظر فى مخلوقاته ، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب فى مصنوعاته ، لقوله

سبحانه ـ قُلِ انظرُوا ماذَا فى السموات والأرض ـ وقوله ـ وجعلنا منَ الماء كلَّ شىء حىٍّ أفلاَ يؤمنونَ ـ الى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التى يفهمها ، والمترقى فى اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التى هى سبب السعادة ، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة .

وقد بوّبته أبوابا يشتمل كل باب على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق وذلك حسب ماتنبهت له عقولنا فيما أشرنا اليه ، مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ماخلق الله سبحانه وتعالى ، وما وضع من الحكم فى مخلوق واحد من مخلوقاته لعجزوا عن ذلك ، وما أدركته الخلائق من ذلك ما وهب الله سبحانه لكل منهم وما سبق له من ربه سبحانه .

والله المسئول أن ينفعنا به برحمته وجوده .

باب التفكر فى خلق السماء ، وفى هذا العالم

قال الله تعالى ـ أفلَمْ ينظرُوا الىَ السماءِ فوقهمْ كيفَ بنيناها وزيّناها ومالَها منْ فروجٍ ـ وقال سبحانه وتعالى ـ اللهُ الذى خلقَ سبعَ سموات الآية ـ اعلم رحمك الله أنك اذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المبنى المعدّ فيه جميع ما يحتاج اليه . فالسماء مرفوعة كالسقف . والأرض ممدودة كالبساط . والنجوم منصوبة كالمصابيح . والجواهر مخزونة كالذخائر . وكل شىء من ذلك معدّ مهيأ لشأنه ، والانسان كالمالك للبيت المخول لما فيه فضروب النبات لمآربه وأصناف الحيوانات مصروفة فى مصالحه ، فخلق سبحانه السماء وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها ولو كانت أشعة أو أنواراً لأضرت الناظر اليها ، فان النظر الى الخضرة والزرقة موافق للأبصار ، وتجد النفوس عند رؤية السماء فى سعتها نعيما وراحة : لاسيما اذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها ، والملوك تجعل فى سقوف مجالسها من النقش والزينة مايجد الناظر اليه به راحة وانشراحاً

لكن اذا داوم الناظر اليه نظره وكرره مله وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانشراح ، بخلاف النظر الى السماء وزينتها فان الناظر اليها من الملوك ، فمن دونهم اذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجئون الى مايشرحهم من النظر الى السماء وسعة الفضاء ، وقد قالت الحكماء : يحذوك عندك من الراحة والنعيم فى دارك بمقدار ماعندك فيها من السماء ، وفيها انها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فتهتدى بها أهل الآفاق ، وفيها طرق لاتزال توجد آثارها من المغرب والمشرق ولا توجد مجردة ولا مقبلة صورة نور ، وقيل انها أنجم صغار متكاثفة مجتمعة يهتدى بها على السير من ضلّ ويحثر فى أى جهة كانت فيقصدها . وقيل انها المشار اليها فى قوله تعالى - والسماءِ ذاتِ الحُبُك - قيل الحبك الطرق . وقيل ذات الزينة فهى دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعته محكمة صمدية تدل على سعة علم بارئها وأمور ترتيبها كل تدل على إرادة منشيها فسبحان القادر العالم المريد . وقيل فى النظر الى السماء عشر فوائد تنقص الهمّ ، وتقلل الوسواس ، وتزيل وهم الخوف ، وتذكر بالله ، وتنشر فى القلب التعظيم لله ، وتزيل الفكر الرديئة ، وتنفع لمرض السوداء ، وتسلى المشتاق ، وتؤنس المحبين ، وهى قبلة دعاء الداعين .

باب فى حكمة الشمس

قال الله سبحانه - وجعلَ الشمسَ سِراجاً - اعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لأمور لايستكمل علمها الا الله وحده ، فالذى ظهر من حكمته فيها أن جعل حركاتها لاقامة الليل والنهار فى جميع أقاليم الأرض ، ولولا ذلك لبطل أمر الدين أولولاه كيف كان يكون الناس يسعون فى معايشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته ولولا ضياء نورها ما انتفع بالأبصار ولم تظهر الألوان ، وتأمل غروبها وغيبتها

عمن طلعت عليهم وما فى ذلك من الحكمة ، ولولاه لم يكن للخلق هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم الى الهدوء وراحة أبدانهم وخمود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم طعامهم وتفنيد الغذاء ، ثم كان الحرص لحملهم على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته فى أبدانهم ، فان أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ماهدءوا ولاقروا من حرصهم على نيل ماينتفعون به ، ثم كانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ماعليها من الحيوانات والنباتات ، فهى بطلوعها فى وقت وغروبها فى وقت فى النور بمنزلة سراج لأهل بيت يستضاء به وقتاً ويغيب وقتاً ليهتدوا ويقروا وهى فى حرها بمنزلة نار يطبخ بها أهل الدار حتى اذا كمل طبيخهم واستغنوا عنها أخذها من جاورهم ، وهو يحتاج اليها فينتفع حتى اذا قضى حاجته سلمها لآخرين ، فهى أبداً منصرفة فى منافع أهل الأرض بتضادّ النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظافرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه ، والى هذه القضية الاشارة بقوله ـ قلْ أرأيتمْ ان جعلَ اللهُ عليكمُ الليلَ سرمداً الى يومِ القيامةِ ـ الآية ، ثم بتقدّمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم أمر النبات والحيوان ، ثم انظر الى مسيرها فى فلكها فى مدة سنة وهى تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخر لها بتقدير خالقها ، فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت المواقيت ، ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق ؛ فانظر كيف جعل الله الليل سكناً ولباساً والنهار معاشاً ، وانظر الى إيلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص ، وانظر الى إمالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء ، فاذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء ، واذا استوت وسط السماء اشتدّ القيظ ، واذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان باقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة . وأما مافى ذلك من

المصلحة ، ففى الشتاء تعود الحرارة فى الشجر والنبات فيتولد فيه موادّ الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتدّ أبدان الحيوان وتقوى أفعال الطبيعة ، وفى الربيع تتحرك الطبائع فى الموادّ المتولدة فى الشتاء فيطلع النبات باذن الله وينور الشجر ، وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل ، وفى الصيف يخمر الهواء فينضج الثمار وتنحل فضول الأبدان ويجفّ وجه الأرض فتتهيأ لما يصلح لذلك من الأعمال ، وفى الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض ويمتدّ الليل فيعمل فيه بعض الأعمال وتحسن فيه الزراعة ، وكل ذلك يأتى على تدريج وبقدر حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة الى غير ذلك مما يطول لو ذكر .

فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه ، ثم تفكر فى تنقل الشمس فى هذه البروج لاقامة دور السنة ، وهذا الدور هو الذى يجمع الأزمنة الأربعة : الشتاء والصيف والربيع والخريف وتسير فيها على التمام ، وفى القدر من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهى غاياتها ، ثم تعود فتستأنف وقت السير وبمسيرها تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم .

تأمل إشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى فانها لو بزغت فى موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها الا الى جهة واحدة وخلت عنها جميع الجهات فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق فيعمّ شروقها مايقابلها من جهة المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى الى الغرب على ما استترعنها أول النهار فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها ، ثم انظر الى مقدار الليل والنهار كيف وقتهما سبحانه على مافيه صلاح العالم فصارا بمقدار لو تجاوزاه لأضرا بكل ماعلى وجه الأرض من حيوان ونبات : أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر مادام يجد ضوء النهار ، وكانت البهائم

لاتمسك عن الرعى فيئول أمرها الى تلفها ، وأما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق ، وكذلك الليل لو امتدّ مقداره أيضاً لكان معوقا لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف فى طلب المعاش ، وتجمد الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد كالذى يحدث على النبات اذا كان الموضع لاتقع الشمس عليه .

باب فى حكمة خلق القمر والكواكب

قال الله سبحانه وتعالى — تباركَ الذى جعلَ فى السماءِ بروجاً وجعلَ فيها سراجاً وقمراً منيراً — اعلم وفقك الله أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبرد الهواء وهدوء الحيوان وسكونه فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية لاضياء فيها ألبتة فكان لايمكن أن يعمل عملا فيه وربما احتاج الناس الى بعض أعمالهم فى الليل إما لضرورة أولضيق وقت عليهم من النهار ، وقديقع ذلك لشدة حرارة أولغيره من الأسباب ، فكان ضوء القمر فى الليل من جملة مانحتاج اليه فى المعونة على ذلك فجعل طلوعه فى بعض الليالى ، وينقص نوره عن نور الشمس وحرها لئلا ينشط الناس فى العمل نشاطهم فى النهار فينعدم مابه يتمتعون من الهدوء والقرار فيضر ذلك بهم ، وجعل فى الكواكب جزءا من النور يستعان به اذا لم يكن ضوء القمر وجعل فى الكواكب زينة السماء وأنساً وانشراحاً لأهل الأرض شيئا ماألطف هذا التدبير ، جعل للظلمة دولة ومدة للحاجة اليها . وجعل خلالها فانظر من النور ليكمل به مااحتيج اليه ، ثم فى القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح ونعمة من الله ، ثم فى النجوم مآرب أخرى فن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة والاهتداء بها فى السفر فى البر والبحر وأشياء مما تحدث من الأنواء والحر والبرد ، وبها يهتدى السيارون فى ظلمة الليل وقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة كما قال تعالى — وَهوَ الذى

جعل لكمُ النجوم لتهتدُوا بهَا فى ظلماتِ البرِّ والبحر - مع ما فى ترددها فى السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة ، وفى تصريف القمر خاصة فى استهلاله ومحاقه وزيادته ونقصانه واستنارته وكسوفه : كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لاصلاح العالم ، ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب فى كل يوم وليلة دوراناً سريعاً وسيرها معلوم مشاهد فانا نشاهدها طالعة وغاربة ، ولولا سرعة سيرها لماقطعت هذه المسافة البعيدة فى أربعة وعشرين ساعة ، فلولا تدبير البارى سبحانه بارتفاعها حتى خفى عنا شدة مسيرها فى فلكها لكانت تختطف بتوهجها لسرعة حركتها كالذى يحدث أحياناً من البروق اذا توالت فى الجو ، فانظر لطف البارى سبحانه فى تقدير سيرها فى البعد البعيد لكيلا يحدث من سيرها حادث لا يحتمل فهى مقدرة فى جميع الأحوال على قدر الحاجة ، وانظر فى هذه التى تظهر فى بعض السنة وتحتجب فى بعضها مثل الثريا والجوزاء والشعرا ، فانها لو كانت كلها تظهر فى وقت واحد لم يكن لشىء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها فكان فى طلوع بعضها فى وقت دون الآخر مايدل على ماينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحهم ، ولذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة فانها بمنزلة الأعلام التى يهتدى بها الناس للطرق المجهولة فى البر والبحر فانها لا تغيب ولا تتوارى . ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التى تكون من تنقلات المتنقلة منها ومصيرها فى كل واحد من البروج كما يستدل على أشياء تحدث فى العالم بتنقل الشمس والقمر فى منازلهما ولو كانت متنقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لانه انما يعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها فى البروج الدائمة كما يعرف سير السائر على الأرض بالمنازل التى يجتاز عليها ، فقد صار هذا الفلك شمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على هذا

العالم بهذا دورانا دائما فى الفصول الأربعة من السنة لصلاح مافيه من حيوان ونبات وغير ذلك بتقدير العزيز العليم ، ومن عظيم الحكمة خلق الأفلاك التى بها ثبات هذا العالم على نهاية من الاتقان لطول البقاء وعدم التغير فقد كفى الناس التغير فى هذا الأمر الجليل الذى ليس قدرة ولا حيلة فى اصلاحه لو نزل به تغير يوجب ذلك التغير أمراً فى الأرض : إذ قوام الأرض مرتبط بالسماء ، فالأمر فى جميع ذلك ماض على قدرة البارى سبحانه لا يختلّ ولا يعتل ولا يتخلف منه شىء عن ميقاته لصلاح العالم ، فسبحان العليم القدير .

باب فى حكمة خلق الأرض

قال تعالى ـ والأرضَ فرشناهاَ فنعمَ الماهدونَ ـ ثم انظر كيف جعل الله الأرض مهاداً ليستقر عليها الحيوان فانه لابدّ له من مستقر ، ولاغنى له عن قوت فجميع الأرض محل للنبات لقوته ، ومسكن يكنه من الحر والبرد ، ومدفن يدفن فيه ماتؤذى رائحته ، والجيف والأقذار من أجسام بنى آدم وغيرها كما قال سبحانه ـ ألمْ نجعلِ الارضَ كِفاتاً أحياءً وأمواتاً ـ قيل فى تفسير هذه الآية هذا القول وغيره ، ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق لطلب مآربهم فهى موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان والحرث والنبات ، وجعل فيها الاستقرار والثبات كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله ـ أخرج منهاَ ماءَها ومرْعاهاَ والجبالَ أرساهاَ متاعاً لكمْ ولأنعامكمْ ـ فأمكن الخلائق بهذا السفر فيها فى مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والانتقال لأعمالهم ، فانها لو كانت رجراجة متحركة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئاً من النبات وجميع الصناعات وكانوا لايتهنون بالعيش والأرض ترتج بهم من تحتهم ، واعتبر ذلك بمايصيب الناس فى الزلازل ترهيباً للخلق وتخويفاً لهم لعلهم يتقون الله وينزعون عن الظلم والعصيان فهذا أيضاً من الحكمة البالغة ، ثم ان الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر

مخصوص ، أرأيت لو أفرط اليبس عليها حتى تكون بجملتها حجراً صلداً لما كانت تنبت هذا النبات الذى به حياة الحيوانات ، ولا كان يمكن فيها حرث ولا بناء فجعل لينها لتتهيأ لهذه الأعمال ، ومن الحكمة فى خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب لينحدر الماء على وجه الأرض فيسقيها ويرويها ، ثم يصير الى البحر فى آخر الأمر فأشبه ذلك ما اذا رفع أحد جانبى السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه ، ولولا ذلك لبقى الماء مستبحراً على وجه الأرض فيمتنع الناس من أعمالهم وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك . انظر الى ما خلق الله فيها من المعادن ومايخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة فى منافعها وألوانها مثل الذهب والفضة والياقوت والزمرد والبسنفش [١] وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة المختلفة فى ألوانها وأنواع أخر مما يصلح للأعمال والجمال كالحديد والنحاس والقزدير والرصاص والكبريت والزرنيخ والتوتيا والرخام والجبس والنفط وأنواع لو عددت لطال ذكرها وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم . فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار ، ثم انظر الى إرادة إجادته من عمارتها وانتفاع العباد بها بجعلها هشة سهلة ، بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال فلو يبست كذلك لتعذرت ، فان الحرث لايستقيم الا مع رخو الأرض لزراعة الأقوات والثمر ، والافلايتعدى اذا صلبت الماء الى الحب مع أن الحب لايمكن دفنه الا بعد أن تلين الأرض بالنداوة ويأخذ الورق وهى ضعيفة فى ابتدائها فى الأرض التربة . ويمكن اذ ذلك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق متلبسة بالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه وجعل مايخلق من العروق يوازن مايخلق من الفروع ، ومن رحمته فى لينها أن يسر للناس حفر الآبار فى المواضع المحتاجة الى

---

(١) هكذا الاصل ولم أجده فى اللسان

ذلك اذ لو حفرت فى الجبال لصعب الأمر وشق ، ومن الحكمة فى لينها تيسير السير للسعاة فيها إذ لو صلبت لعسر السير ولم تظهر الطرق ، وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله ـ هوَ الذى جعلَ لكمُ الارضَ ذلولا فامشوا فى مناكبها ـ وقال تعالى ـ وجعلنا فيها فِجاجاً سُبلا لعلهم يهتدونَ ـ ومن ذلك مايستعين به العباد من ترابها ولينها فى البناء وعمل اللبن وأوانى الفخار وغير ذلك والمواضع التى ينبت فيها الملح والشب والبورق والكبريت أكثرها تربة رخوة ، وأيضاً أجناس من النبات لايوجد الافى التراب والرمل دون الأرض المحيلة ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها فيتخذون فيها مسارب وبيوتا يؤوى اليها ، ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكرنا فقد امتنّ سبحانه على سليمان عليه السلام بقوله ـ وأسلنا لهُ عينَ القِطرِ ـ أى سهلت له الانتفاع بالنحاس وأطلعناه على معدنه ، وقال امتنانا على عباده ـ وأنزلنا الحديدَ فيهِ بأس شديد ومنافعُ للناس ـ والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه ـ وأنزلَ لكمْ منَ الأنعامِ ـ أى خلق ، وألهمهم استخراج مافيها من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم ومايحتاجون اليه فى معاشهم وفى اتخاذ أوانيهم ، وفى ضبطها مايحتاجون الى ضبطه ونقويته واتخاذ أنواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ويتخذون منها أوانى لحفظ مايحصل فيها من الأمور النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج اليها إذ لا غنى لهم عنها ، وكذلك يستخرج من المعادن الأكحال مثل (الدهبخ [1] والمرفنعا) والسادن والتوتيا وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم . ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال . قال الله تعالى ـ والجبال أرساها ـ وقال تعالى ـ وألقى فِى الأرضِ رَواسِىَ أنْ تميدَ بكمْ ـ وقال سبحانه ـ وأنزلنا من السماءِ ماءً فأسكناهُ فى الأرضِ ـ فقد خلق سبحانه

(١) هكذا الاصل ولم أجده فى اللسان

فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها الا الله ، فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء المياه ليحيي بها العباد والبلاد . فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحرّ الشمس مع رخو الأرض فكانوا لا يجدون المياه الا بعد حفر وتعب ومشقة ، فجعل سبحانه الجبال لتستقر فى بطونها المياه ويخرج أوّلا فأولا فتكون منها عيون وأنهار وبحار يرتوى بها العباد فى أيام القيظ الى أوان نزول غيث السماء ، ومن الجبال ما ليس فى باطنها محل للمياه ، فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها الى أن يحله حرّ الشمس فيكون منه أنهار وسواق ينتفع بها الى أوان نزول الغيث أيضاً ، ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به ، ومن منافع الجبال ما يثبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التى لا توجد الا فيها وما يثبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن ، وفيها الشعارى التى لا يوجد ما يعظم من الأخشاب الا فيها ؛ وكذلك العقاقير أكثرها لا يوجد الا بها ، وفيها وهاد تنبت مزارع للأنعام ومزارع لبنى آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح[1] النحل ، ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من المساكن تقيهم الحر والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى ، وقد ذكر الله ذلك . فقال — وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين — ، ومن فوائدها أن جعلت أعلاما يستدل بها المسافرون على الطرقات فى نواحى الأرض . ويستدل بها المسافرون فى البحار على المين والسواحل ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا تطيقه تتخذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ويمنعها ممن تخافه فتطمئن لذلك ، وانظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير مخصوص ولم يجعل ذلك ميسراً فى الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته كما جعل هذه السعة فى المياه ، وما ذلك الا

---

(١) الاجناح جمع جانح كشاهد وأشهاد أراد به موائلها

لما سبق فى علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار الى ذلك بقوله ـ وإنْ من شئ الاَّ عندنا خزائنهُ وما نُنزلهُ الاَّ بقدر معلوم ـ فسبحان العليم الحكيم .

باب فى حكمة البحر

قال الله تبارك وتعالى ـ وهوَ الذِى سخرَ البحر لتأكلُوا منهُ لحماً طرياً ـ الآية . اعلم رحمك الله : أن الله سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها . فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التى هى قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض : حتى ان جميع المكشوف من البرارى والجبال عن الماء بالاضافة الى الماء كربوة صغيرة فى بحر عظيم . فاعلم أن ما يخلق فى الأرض من الحيوان بالاضافة الى ما خلق فى البحر كاضافة الأرض الى البحر ، وقد شاهدتُ عجائب فيها ماهو مكشوف منها فتأمل عجائب البحر فان فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ، ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما اذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاف (١) وجبال أوجزائر ، وما من صنف من أصناف حيوان البر من انسان وطائر وفرس وبقر وغير ذلك الا وفى البحر أمثالها وأضعافها ، وفيه أجناس من الحيوانات لم تعهد أمثالها فى البر ، وكل منها قد دبره البارى سبحانه وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه ! ولو استقصى ذكر ما يحتويه بعضه لاحتاج الى وضع مجلدات ، ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً فى صدف تحت الماء وأثبت المرجان فى جنح صخور فى البحر . فقال سبحانه ـ يَخرجُ منهُماَ اللؤلؤُ والمرجانُ ـ وذلك فى معرض الامتنان ، وقيل المرجان المذكور فى القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ . ثم قال ـ فبأىِّ آلاءِ ربكماَ تكذبانِ ـ وآلاؤه تفضله ونعمه ، ثم انظر ما يقذفه من العنبر

(١) الحشاف جمع حشفة وهى الجزيرة فى البحر لا يعلوها الماء أو الصخرة الرخوة فى سهل من الارض اه لسان

وغيره من المنفوع ، ثم انظر الى عجائب السفن و كيف مسكها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل مالهم من الأعراض وجعلها من آياته ونعمته . فقال - وَالفلكِ التي تجرى فى البحرِ بِما ينفعُ الناس - ، فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم وينتقلون بها من أقاليم الى أقاليم لا يمكن وصولهم اليها الا بالسفن ؛ ولو راموا التوصل بغيرها لأدّى الى أعظم المشقات وعجزوا عن نقل ماينقل من المنقولات الى ما بعد من البلاد والجهات ، فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده و يهون ذلك عليهم خلق الأخشاب متخاخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها مايحمل به الأثقال وألهم العباد اتخاذها سفنا . ثم أرسل الرياح بمقادير فى أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع الى موضع آخر . ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التى تحملها شراعها ، وانظر الى ما يسره سبحانه فى خلقه الماء ، إذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الأجزاء كأنه شىء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطع حتى كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه ، فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله فى هذا كله ، وفى بعضه متسع للفكر ، وكل ذلك شواهد متظاهرة ودلائل متضافرة وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال باريها ، معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته ، قائلة : أماترى تصويرى وتركيبى وصفاتى زمنا واختلاف حالى و كثرة فوائدى : أيظن ذو لبّ سليم وعقل رصين أنى تلونت بنفسى أو أبدعنى أحد من جنسى : بل ذلك صنع القادر القهار العزيز الجبار .

باب فى حكمة خلق الماء

قال الله تبارك وتعالى - وجعلنا من الماءِ كلّ شىء حىّ أفلا يؤمنون - وقال سبحانه - فانبتنا بهِ حدائق ذات بهجة ما كانَ لكمْ أن تنبتوا شجرها أإلهٌ

مع الله بل هم قوم يعدلون ـ انظر وفقك الله الى ما منّ به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذى به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو اضطر الانسان الى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها جميع ما يمكنه من خزائن الدنيا ، والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة ، وانظر مع شدة الحاجة اليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها ، ولو جعلها بقدر لضاق الأمر فيها وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا ؛ ثم انظر لطافة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض ويخلخل أجزاءها فتتغذى عروق الشجر ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس الى أعالى الشجر والنبات وهو من طبعه الهبوط ولما كانت الضرورة تدعو الى شربه لإماعة الأغذية فى أجواف الحيوان ليتصرف الغذاء الى موضعه جعله لشاربه فى شربه لذة عند حاجته اليه وقبوله له ويجد شاربه فيه نعيما وراحة ، وجعل مزيلا للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب وغيرها ، وبالماء يبلّ التراب فيصلح للبناء والأعمال ، وبه يرطب كل يابس مما لا يمكن استعماله يابسا ، وبه ترقّ الأشربة فيسوغ شربها ، وبه تطفأ عاذبة (١) النار اذا وقعت فيها فلا تلتهب فيه وأشرف الناس منها على مايكرهون وبه تزول الغصة اذا أشرف صاحبها على الموت ، وبه يغتسل التعب الكلّ فيجد الراحة لوقته ، وبه تستقيم المطبوخات وجميع الأشياء التى لاتستعمل ولا تصلح الارطبة الى غير ذلك من مآرب العباد التى لاغنى لهم عنها ، فانظر فى عموم هذه النعمة وسهولة تناولها مع الغفلة عن قدرها مع شدة الحاجة اليها . فلو ضاقت لكدرت الحياة فى الدنيا ، فعلم بهذا أن الله تبارك وتعالى أراد بانزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن الى غير ذلك من المنافع التى يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها ، فسبحان المتفضل العظيم .

---

(١) العاذب الذى ليس بينه وبين السماء ستر

باب الحكمة فى خلق الهواء

قال الله تعالى ـ وأرسلنا الرياحَ لواقحَ فأنزلنا منَ السماءِ ماء فأسقيناكموهُ وما أنتمْ لهُ بخازنينَ ـ اعلم رحمك الله أن الهواء فى حلقه [١] تتخلخله الرياح ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر ، وباستنشاقه تعتدل الحرارة فى أجسام جميع الحيوانات لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر ، فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التى فيها الى قلبها فكان هلاكها بسبب ذلك ، ثم انظر الى الحكمة فى أسوق السحاب به فيقطع المطر بانتقال السحاب فى موضع يحتاج الى المطر فيها للزراعة ، فلولا لطف البارى بخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة فى أماكنها وامتنع انتفاع الأرض بها ، ثم انظر كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيها من أقاليم الى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فينتفع أهلها ، فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء الا بمواضعها التى خلقت فيها خاصة ، ولعسر نقلها بالدواب الى غيرها من الأقاليم ، وللعباد ضرورات تدعو الى ما ينقل اليهم مما ليس يخلق عندهم ، ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يجلبها ويعلم فوائدها . ثم انظر الى مافى الهواء من اللطافة والحركة التى تتخلل أجزاء العالم فينقى بحركته عفن الأرض ، فلولاه لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل ، ثم انظر الى ما يحصل منه من النفع فى نقل السوافى والرمال الى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل اليها من التراب بسبب حركة الهواء وتستر وجوه جبال بالسافى [٢] فيمكن الزراعة فيه وما فصل الى السواحل مما ينتفع الناس بسببه ، وكل ذلك بحركة البحر بالهواء فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد فى أمورهم ، ثم انظر كيف يتفرق

---

(١) الحلق الاهوية بين السماء والارض واحدها حالق ، والهواء الفراغ قال تعالى : وأفئدتهم هواء

(٢) السافى التراب الذى تسفيه الريح

المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات ، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه ، ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهاراً وبحاراً على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه ؛ فانظر الى أثر رحمة الله ، فسبحان اللطيف بخلقه المدبر لملكه ، ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى — هوَ الذِى أَنزلَ منَ السماءِ ماءً لكمْ منهُ شرابٌ ومنهُ شجر فيهِ تُسيمونَ يُنبتُ لكمْ به الزرعَ والزَّيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومنْ كلِّ الثَّمراتِ : إنَّ فى ذلك لآيةً لِقومٍ يتفكرونَ — ؛ ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم ، فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً . ألا ترى الى الأمطار اذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضروات وهدمت المساكن والبيوت وقطعت السبل ومنعت من الأسفار وكثير من الحرف والصناعات ، ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات ، وعفن الماء الذى فى العيون والأودية ، فأضر ذلك بالعباد . وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الأمراض ، وغلت بسببه الأسعار من الأقوات ، وبطل المرعى وتعذر على النحل ما يجدونه من الرطوبة التى يرعاها على الأزهار ، واذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر فصلحت الأشياء واستقامت ، وهذا هو الغالب من مشيئة الله . فان قيل قد يقع من أحدهما ضرر فى بعض الأوقات ، قلنا قد يكون ذلك لتنبيه الانسان بتضاد الأشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته انه هو الغالب فيحصل لهم بتلك انزجار عن الظلم والعصيان : ألا ترى من سقم جسمه احتاج الى ما يلائمه من الأدوية البشعة الكريهة ليصلح جسمه ويصح

مافسد منه قال الله — ولكنْ ينزِّلُ بقدرٍ مايشاء إنهُ بعباده خبيرٌ بصيرٌ — .

باب في حكمة خلق النار

قال الله تعالى — أفرأيتمُ النارَ التي تُورونَ أأنتمْ أنشأتمْ شجرتها أمْ نحنُ المنشئونَ نحنُ جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمقْوِينَ فسبحْ باسمِ ربكَ العظيمِ — اعلم وفقنا الله و إياك : أن الله خلق النار ، وهى من أعظم النعم على عباده ، ولما علم الله سبحانه وتعالى : أن كثرتها وبثها فى العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى اذا احتيج اليها وُجدت واستعملت فى كل أمر يحتاج اليها فيه . فهى مخزونة فى الاجسام ، ومنافعها كثيرة لاتحصى . فمنها ماتصلحه من الطبائخ والأشربة التى لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط ، ولا صحة هضم لمن يستعملها فى أكل وشرب ، فانظر لطف البارى سبحانه فى هذا الأمر المهم ، ثم انظر فيما يحتاج الناس اليه من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقزدير وغير ذلك ، فلولاها لم يكن شىء من الانتفاع من هذه الأشياء ، فبها يذاب النحاس فتعمل منه الأوانى وغيرها ، وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر . فقال تعالى — اعملوا آلَ داودَ شكراً — وبه يلين الحديد فيعملون به أنواعاً من المنافع والآلات للحروب مثل الدروع والسيوف الى غير ذلك مما يطول تعداده ، وقد نبه الله تعالى على مثل هذا . فقال — وأنزلنا الحديدَ فيهِ بأس شديد ومنافعُ للناس — وقال تعالى — لتحصنكمْ منْ بأسكمْ فهلْ أنتمْ شاكرونَ — ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار ، وآلات يطرق بها ، وآلات لقطع الجبال الصمة ، وآلات لنجارة الاخشاب مما يكثر تعدادها . فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شىء

من المنافع ؛ ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة ، وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة ، ثم انظر الى ما جعل الله تعالى فى النار من الفرح والتروّح عند ما تغشى الناس ظلمة الليل كيف يستضيئون بها ويهتدون بنورها فى جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مراقد ، ورؤية مايؤذيهم ومؤانسة مرضاهم وقصدها والعمل عليها براً وبحراً فيجدون بوجودها أنساً حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم ، ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستعينون بها فى الحروب ومقاومة حصون لاتملك الا بها ، فانظر ماأعظم قدر هذه النعمة التى جعل سبحانه حكمها بأيديهم ان شاءوا خزنوها ، وان شاءوا أبرزوها .

باب فى حكمة خلق الانسان

قال تعالى ـ ولقدْ خلقنا الانسانَ منْ سُلالةٍ منْ طين ـ الى آخر ماوصفه سبحانه . اعلم وفقك الله تعالى : أن الله عزّ وجلّ لما سبق فى علمه خلق الخلق وبثهم فى هذه الدار ، وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار ، خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض ، فخلق سبحانه الذكر والأنثى وألقى فى قلوبهم المحبة والدواعى حتى عجزوا عن الصبر وعدما الحيلة فى اجتناب الشهوة ، فساقهم الشهوة المفطورة فى خلقهم الى الاجتماع وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به الى إيداع الماء فى القرار المكين الذى يخلق فيه الجنين ، فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن ، وخرجت ماء دافقاً مندفعاً من بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة ، فانتقلت بسبب الافلاج من باطن الى باطن ، فكانت مع انتقالها باقية على أصلها ، لانها ماء مهين أدنى شىء يباشرها يفسدها ويغير أصلها ، لانها ماء مهين ، أدنى شىء يباشرها يفسدها ويغير مزاجها ، فهى ماء يختلط جميعه مستوية أجزاؤه لا تفاوت فيها بحال ، فخلق سبحانه منه الذكر

والأنثى بعد نقلها من النطفة الى العلقة الى المضغة الى العظام ، ثم كساها اللحم وشدها بالأعصاب والأوتار ونسجها بالعروق ، وخلق الأعضاء وركبها فدوّر سبحانه الرأس وشق فيها السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، فجعل العين للبصر ، ومن العجائب سرّ كونها مبصرة للأشياء ، وهو أمر يعجز عن شرح سره ، وركبها من سبع طبقات : لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها ، فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الابصار ، وانظر الى هيئة الأشفار التى تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقى العين مما يصل اليها مما يؤذيها من غبار وغيره ، فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق فى غير وقت ، ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا تنقص نقصاً يضر بها ، وخلق فى مأها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها ، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلا لينصرف ما يقع فى العين لأحد الجانبين ، وجعل الحاجبين جمالا للوجه وستراً للعينين وشعرهما يشبه الأهداب فى عدم الزيادة المشوّهة ، وجعل شعر الرأس واللحية قابلا للزيادة والنقص ، فيفعل فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه ، ثم انظر الى الفم واللسان وما فى ذلك من الحكم ، فجعل الشفتين ستراً للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة الى فتحه ، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال ، فلولاهما لتشوّهت الخلق ، وهما معينان على الكلام واللسان للنطق والتعبير عما فى ضمير الانسان وتقليب الطعام و إلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ، ويسهل ابتلاعه ، ثم جعل الأسنان أعداداً متفرقة ولم تكن عظما واحداً ، فان أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقى ، وجمع فيها بين النفع والجمال ، وجعل ما كان منها معكوساً زائد الشعب حتى تطول مدته مع الصف الذى تحته ، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة اليها على

الدوام ، وفى الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة الى درس الغذاء ، فان المضغ هو الهضم الأول ، وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام وجعلا للفم فأحكم أصولها ، وحدّد دروسها ، وبيض لونها مع حمرة ماحولها ، متساوية الرؤوس متناسبة التركيب : كأنها الدر المنظوم ، ثم انظر كيف خلق فى الفم نداوة محبوسة لا تظهر الا فى وقت الحاجة اليها ، فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويها للانسان ، فجعلت ليبل بها مايمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم ، فاذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التى خلقت للترطيب ، وبقى منها ما يبلّ اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولئلا يجف ، فان جفافه مهلك للانسان ، ثم انظر الى رحمة الله ولطفه : إذ جعل للآكل لذّة الأكل فجعل الذوق فى اللسان وغيره من أجزاء الفم ليعرف بالذوق مايوافقه ويلائمه من المأذوذ . فيجد فى ذلك راحة فى الطعام والشراب اذا دعت حاجة الى تناوله وليجتنب الشىء الذى لايوافقه ، ويعرف بذلك حدّ ما تصل الأشياء اليه فى الحرارة والبرودة ، ثم ان الله تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضرر الدود ويقتل أكثر الهوامّ الذين يلجون السمع ، وحفظ الأذن بصدفة لتجمع الصوت فترده الى صماخها ، وجعل فيها زيادة حسّ لتحسّ بما يصل اليها مما يؤذيها من هوام وغيرها ، وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت ، ولتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم ، ثم انظر الى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء ، وذلك سر لا يعلم حقيقته الا البارى سبحانه الى غير ذلك ، ثم انظر كيف رفع الأنف فى وسط الوجه ، فأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وجعل فيها حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ، وليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث القذرة ، وليستنشق أيضاً روح الحياة غذاء لقلبه وترويحاً

لحرارة باطنه ، ثم خلق الحنجرة وهيئها لخروج الأصوات ، ودوّر اللسان فى الحركات والتقطيعات ، فيقطع الصوت فى مجارى مختلفة تختلف بها الحروف ليسع طرق النطق ، وجعل الحنجرة مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات ، فلم يتشابه صوتان : كما خلق بين كل صورتين اختلافا فلم تشتبه صورتان : بل يظهر بين كل صورتين فرقان ، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت ، وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان ، وذلك لسرّ التعارف . فان الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما ، فخلق منهما خلقا جعله مخالفا لخلق أبيه وأمه ، ثم توالى الخلق كذلك لسرّ التعارف ثم انظر لخلق اليدين تهدين الى جلب المقاصد ودفع المضارّ وكيف عرض الكف وقسم الأصابع الخمس ، وقسم الأصابع بأنامل ، وجعل الأربعة فى جانب والابهام فى جانب فيدور الابهام على الجميع ، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجها آخر عن وضع الأصابع سوى ماوضعت عليه من بعد الابهام عن الأربعة ، وتفاوت الأربعة فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا على ذلك . وبهذا الوضع صلح بها القبض والاعطاء . فان بسطها كانت طبقاً يضع عليه مايريد ، وان جمعها كانت آلة يضرب بها ، وان ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له ، وان بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة ، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تضعف ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تتناولها الأنامل لولاها ، وليحك بها جسمه عند الحاجة الى ذلك ، فانظر أقلّ الأشياء فى جسمه لوعدمها وظهرت به حكة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع مايؤلمه ، وجلب ماينتفع به فى ذلك ولم يقم له غير الظفر مقامه فى حك جسده ، لانه مخلوق لذلك ولغيره فهو

لاصلب كصلابة العظام . ولا رخو كرخاوة الجلد يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلك ، ثم جعله يهتدى به الى الحك فى حالة نومه ويقظته ويقصد المواضع الى جهتها من جسده ، ولو احتاج الى غيره واستعان به فى حكمها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة الا بعد طول وتعب ؛ ثم انظر كيف مدّ منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعى ، وزين القدمين بالأصابع ، وجعلها زينة وقوة على السعى ، وزين الاصابع أيضاً بالأظفار وقوّاها بها ، ثم انظر كيف خلق هذا كله من نطفة مهينة ، ثم خلق منها عظام جسده فجعلها أجساماً قوية صلبة لتكون قواماً للبدن وعماداً له ، وقدّرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة ، فمنها صغير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ثم أودع فى أنانيب هذه العظام المخ الرقيق مصاناً لمصلحتها وتقويتها . ولما كان الانسان محتاجاً الى جملة جسمه ، وبعض أعضائه لتردده فى حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة ، وبينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتاد أثبتها بأحد طرفى العظم وألصق الطرف الآخر كالرّباط ، ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منها ، ومن الآخر نقراً غائصة فيها توافق لاشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق ، فصار الانسان اذا أراد أن يحرك شيئا من جسده دون غيره لم يمتنع عليه ، فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك ، ثم انظر كيف جعل خلق الرأس مركبا من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور ، وألف بعضها الى بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى ، فمنها ستة تختص بالقحف ، وأربعة وعشرون للحى الأعلى ، واثنان للحى الأسفل ، والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن ، وبعضها حادّ يصلح للقطع ، ثم جعل الرقبة مركز الرأس ، فركبها من

سبع خرزات مجوفات مستديرات وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها ، ثم ركب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ووصل به من أسفله عظم العصعص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فجملة عدد العظام فى بدن الانسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل ، فانظر كيف خلق البارى سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة والمقصود من ذكر أعدادها تعظيم مدبرها وخالقها وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالا ، واحتاج الانسان الى قلعه ولو نقص منها واحد لاحتاج الانسان الى جبره ، هل سبحانه وتعالى فى هذا الخلق عبرة لأولى الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها ، ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهى العضلات ، فخلق فى بدن الانسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهى مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها . فأربعة وعشرون منها لحركة العين وأجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة اختل أمر العين ، وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه . وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين ومنابتها وسعتها ، فأعجب من هذا وشرحه يطول ، ثم عجائب ما فيه من المعانى والصفات التى لاتدرك بالحواس أعظم ، ثم انظر الى ما شرف به وخص فى خلقه بأنه خلق ينتصب قائماً ويستوى جالساً ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل

ولم يخلق مكبوبا على وجهه كعدة من الحيوانات : إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال ، ثم انظر من حيث الجملة الى ظاهر هذا الانسان وباطنه فتجده مصنوعا صنعة بحكمة تقضى منها العجب ، وقد جعل سبحانه أعضاءه تامة بالغذاء ، والغذاء متوال عليها . لكنه تبارك وتعالى قدّرها بمقادير لا يتعداها ، بل يقف عندها ولا يزيد عليها ، فانها لو تزايدت بتوالى الغذاء عليها لعظمت أبدان بنى آدم ، وثقلت عن الحركة ؛ وعطلت عن الصناعات اللطيفة ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها ، ومن اللباس كذلك ، ومن المساكن مثل ذلك ، وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقاً بخلقه ، فاذا وجدت هذا كله صنعة الله تعالى من قطرة ماء ، فما ظنك بصنعته فى ملكوت السموات والأرض وشمسها وقمرها وكواكبها وما حكمته فى أقدارها وأشكالها وأعدادها وأوضاعها واجتماع بعضها وافتراق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ، فلا تظن أن ذرة فى السموات والأرض وسائر عالم الله ينفك عن حكم ، بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها الا الله سبحانه وتعالى . ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى — أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا — الى آخر ما نبه به ، وتأمل لو اجتمع الانس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً وبصراً وحياة لم يقدروا على ذلك ، فانظر كيف خلقها سبحانه فى الأرحام ، وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها . وصورها فأحسن تصويرها ، وقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام فى أرجائها وحسن أشكال أعضائها ، ورتب عروقها وأعصابها ودبر ظاهرها وباطنها ، وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سببا لبقائها مدة حياتها ، ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل عضو بشكل مخصوص ومقدار

مخصوص لعمل مخصوص ، فجعل المعدة لنضج الغذاء عصبا معيناً شديداً لحاجتها وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه ، وجعل طحن الأضراس أولا معيناً للمعدة على جودة طحنه وهضمه ، وجعل الكبد لاحالة الغذاء الى الدم فيجذب منه الى كل عضو من الغذاء ما يناسبه ؛ فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب ، وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره ، وجعل الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد ، فالطحال لجذب السوداء ، والمرارة لجذب الصفراء ، والكلية المائية عنه ، والمثانة لقبول الماء عن الكلية ، ثم يخرجه فى مجرى الاحليل والعروق والكبد فى اتصال الدم منه الى سائر أطراف البدن ، وجعل جوهرها أتقن من جوهر اللحم ليصونه و يحصره فهى بمنزلة الظروف والأوعية ، ثم انظر كيف دبره فى الرحم ولطف به ألطافا يطول شرحها ولا يستكمل العلم بجملتها الا خالقها ويعجز الواصف عن وصف ما وصل اليه نظره من ذلك ، فمن ذلك جعله فيها لايحتاج الى استدعاء ، ولا يحتاج المولود الى مايبين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه : بل ذلك فى الطباع الى وقت حاجة المولود الى الاغاثة فى غذائه ، ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب وكلفة التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء ، فحينئذ أنبت له الأسنان عند الحاجة اليها لاقبل ذلك ولا بعده ، ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدريج الى حين كماله وبلوغه ؛ وانظر وفكر فى سر كونه يولد جاهلا غير ذى عقل وفهم ؛ فانه لوكان ولد عاقلا فيهما لأنكر الوجود عند خروجه اليه حتى يبقى حيران تائه العقل : إذ رأى مالا يعرف ، وورد عليه مالم يره ولم يعهد مثله ، ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولا وموضوعا معصباً بالخرق ومسجى فى المهد مع كونه لا يستغنى عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ، ثم كان لا يوجد له من الرقة له والحلاوة

والمحبة فى القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه ، فتبين أن ازدياد العقل والفهم فيه على التدريج أصلح به . أفلا يرى كيف أقام كل شىء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب وأعامه تقلب الخطأ فى دقيقه وجليله ، ثم انظر فيما اذا اشتد خلق فيه طريقاً وسببا للتناسل وخلق فى وجهه شعرا ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ويجمله ويستر به غصون وجهه عند شيخوخته ، وان كانت أنثى أبقى وجهها نقيا من الشعر لتبقى لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما فى ذلك من بقاء النسل . فكر الآن فيما ذكرناه ودبره سبحانه فى هذه الأحوال المختلفة : هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهملا : أرأيت لولم يجر له الدم غذاء وهو فى الرحم ألم يكن يذوى ويهلك ويجف كما يجف النبات اذا انقطع عنه الماء . ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله : ألم يكن يهلك ببقائه فى الرحم هو وأمه ولولم يوافه اللبن عند ولادته : ألم يكن يموت جوعا وعطشا أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ولولم يخلق له الأسنان فى وقتها : ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقى فى هيئة النساء والصبيان فلا ترى له هيبة ولا جلالة ولا وقاراً ، ومن ذا الذى يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب فى وقتها الا الذى أنشأه بعد أن لم يكن شيئا مذكورا وتفضل عليه ومنّ عليه بكل هذه النعم . فكر فى شهوة الجماع الداعية لاحيائه ، والآلة الموصلة الى الرحم النطفة والحركة الموجبة لاستخراج النطفة وما فى ذلك من التدبير المحكم ، ثم فكر فى جملة أعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للأرب الذى أريد منها ، فالعينان للاهتداء بالنظر ، واليدان للعلاج والحذف والدفع والرجلان للسعى ، والمعدة لهضم الطعام ، والكبد للتخليص والتمييز ، والفم للكلام ودخول الغذاء والمنافذ لدفع الفضلات ، واذا تأملت كذلك مع سائر

ما فى الانسان وجدته قد وضع على غاية الحكمة والصواب . فكر فى وصول الغذاء الى المعدة حتى ينضجه ويبعث صفوه الى الكبد فى عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء ، ولكيلا يصل الى الكبد منه شىء غليظ خشن فينكؤها فانها خلقت دقيقة لا تحمل الغث فتقلبه باذن الله دما وتنفذ الى سائر البدن فى مجار مهيأة لذلك فيصل الى كل شىء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك ـ فتباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ ـ ثم ينفذ مايكون من خبث وفضول الى معابض وأعضاء أعدت لذلك كما ذكرنا قبل هذا ، فكونها كالأوعية تحمل هذه الفضلات . لكيلا تنتشر فى البدن فتسقمه ، ثم انظر هل تجد فى خلق البدن شيئا لامعنى له . هل خلق البصر الا ليدرك الأشياء والألوان ، فلوكانت الألوان ولم يكن بصر يدركها ، هل كان فى الألوان منفعة ؟ ولو لم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر ؟ وهل خلق السمع الا ليدرك الأصوات ؟ فلوكانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن فى الأصوات منفعة ، وكذلك سائر الحواس . فكر فى أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لايتم الحس الا بها : منها الضياء والهواء ، فلولم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها البصر ولو لم يكن هواء يؤدى الصوت الى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت . فكر فيمن عدم البصر والسمع وما يناله من الخلل فانه لاينظر أن يضع قدمه ولا يدرى مابين يديه ولا يفرق بين الألوان ولا يدرى بهجوم آفة أوعدو ولاسبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات ، وأما من عدم السمع فانه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الأصوات المستحسنة والألحان المطربة وتعظم المؤونة على من يخاطبه حتى ينصرم منه ولايسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد . وكالميت وهو حى ، وأما من عدم العقل فهو أشرّ من البهائم ، فانظر كيف صارت هذه الجوارح ، وهذه

الأوصاف التى بها صلاح الانسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده ، واذا فقد شيئا اختل أمره وعظم مصابه ، ومن بلى بفقد شىء منها فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة الله فى حقه وحق أمثاله ولينال بصبره على ذلك حظا فى الآخرة ، فانظر الى رحمة الله كيف توجد فى العطاء والمنع . ثم فكر فى الأعضاء التى خلقت أفرادا وأزواجا ، وما فى ذلك من الحكمة والصواب ، فالرأس مما خلق فردا ، وان كثيرا من الحواس قد حوتها رأس واحدة ولو زاد عليه شىء كان ثقلا لا يحتاج اليه ، فان كان قسمين فان تكلم واحدهما بقى الآخر معطلا لاحاجة اليه ، وان تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يحتاج اليها ، وان تكلم من أحدهما بخلاف ما يتكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك ، وأما الذى يأخذ به السامع هو ما كان واضحاً ، واليدان خلقتا أزواجا ولم يكن للانسان خير فى أن يكون يلم بيد واحدة لاختلال مايعالجه من الأمور ، فانك ترى من شلت إحدى يديه مايكون عنده من النقص ؛ وان يكلف بشىء لم يحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة . فكر فى تهيئة آلات الصوت ، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لاصاغة الحروف والفم : ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل فى كلامه ، ثم انظر الى ما فى الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها الى الرئة فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع ، وما فى اللسان من تقليب الطعام و إعانته على تسويغ الطعام والشراب ، وما فى الأسنان من المعونة أيضاً ، ثم هى كالمسند للشفتين تمسكهما وتدعهما من داخل الفم ، وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله الى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الانسان ، ثم هما على الفم كالباب .

فقد تبين أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف الى وجوه من المآرب

وضروب من المصالح إن زاد أفسد وان نقص أفسد ، فذلك تقدير العزيز العليم .
فكر فى الدماغ اذا كشف عنه فانك تجده قد لفّ بعضه فوق بعض ليصونه من الأعراض وأطبقت عليه الجمجمة والشعر سترلها وجمال وليبعد عنها مايؤذيها من حرّ وبرد وغير ذلك فحصن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهم وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس ، ثم انظر كيف غيب الفؤاد فى جوف الصدر وكساه المدرعة التى هى غشاؤه وأتقنها وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه ، وان ذلك اللائق به ، ثم انظر كيف جعل فى الحلق منفذين : أحدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل الى الرئة والآخر للغذاء وهو المرىء الواصل الى المعدة ، وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل اليه ، ثم جعل الرئة مروحة للفؤاد لاتفتر ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة لئلا تنحصر الحرارة فى القلب فتؤدى الى التلف ، ثم ملأ الجوّ هواء لهذه المصلحة ولغيرها ، ثم انظر كيف جعل منافذ البول والغائط إسراحا يضبطها لكى لايجرى جرياناً دائماً فيفسد على الانسان عيشته ، ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيراً كثيفاً ليقى الانسان من ألم الجلوس على الأرض كما يألم من الجلوس من نحل جسمه وقلّ لحمه اذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل . انظر لوكان ذكر الرجل مسترخياً أبدا كيف يصل الماء الى موضع الخلق ولوكان منعظاً أبدا كيف يكون حاله فى تصرفاته وهو كذلك ؟ . بل جعله مستوراً كأنه لم تخلق له شهوة ، ثم انظر أليس أنه من حسن التدبير فى البناء أن يكون الخلاء فى أستر موضع فى الدار ، فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الانسان فى أستر موضع من جسده مغيب فيه تلتقى عليه فخذاه بما عليهما من اللحم فتواريه به ويخفى ذكره ، وذلك مخصوص بالانسان لشرفه ، ثم انظر فى خلق الشعر والاظفار

لما كانا يطولان ، وفى تقصيرهما مصلحة جعلا عديمى الحس حتى لاينال الانسان ألم عند التزيين بقصهما ، ولولا هذه الحكمة لكان بين أمرين : اما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه ، أو يزيل ذلك فيتألم بازالته ، ثم تفكر فى الشعور لو نبتت فى العين لأعمت البصر ، أوفى الفم لنغصت الأكل والشرب ، أو فى راحة الكف لنفدت لذة اللمس وبعض الاعمال ، أو فى الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها . فسبحان المدبر المنعم بهذه النعم . فانظر كيف قصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر ، ثم فيما جبل عليه الانسان من الاحتياج الى المطعم والنوم والجماع وما فى ذلك من التدبير المحكم . فقد جعل فى طبعه محركا يقتضيه ويستحثه . فالجوع والعطش يقتضى طلب الطعام الذى به حياتهُ ، وكذلك الشراب الذى به قوامه والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى والشبق يقتضى الجماع الذى به دوام النسل وبقاؤه فلو كان الانسان انما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة اليه ولم يجد من طباعه ما يلجئه اليه لاشتغل بأسباب ضرورته فتنحل قواه ويهلك كما أنه قد يحتاج الى دواء يكرهه ، وفيه صلاحه وليس فى جبلته داعية له فيدافع عن تناوله فيمرض أو يموت . فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصب . وكذلك لو كان إقدامه على الجماع انما هو لرغبة حصول الولد لانقطع النسل لما يعارضه من الأسباب المشغلة . فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره الى حصول هذه الفوائد . انظر كيف رتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب . فصار البدن بما فيه بمنزلة دار للملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار فواحد لامضاء حوائج الحشم وايراد ماء لهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه الى أن يعالج ويهيأ وآخر لاصلاح ذلك وتهيئته واصلاحه أخص مما قبل وآخر لكسح ما فى الدار من الاقذار واخراجه ،

فالملك فى هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه . والدار هى البدن . والحشم هى الاعضاء . والقوم فى هذه القوى الاربع التى هى النفس وموقعها من الانسان بمعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك : أرأيت لو نقص من الانسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف يكون حاله ، وكان لا يحفظ ماله وما عليه وما أصدر وما أورد وما أعطى وما أخذ وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن اليه ولا من أساء له ولا من نفعه ممن ضره . وكان لا يهتدى لطريق ولو سلكه . ولا لعلم ولو درسه . ولا ينتفع بتحريره . ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى . فانظر الى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها . فكيف جميعها وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان . فلولا النسيان ماسلا الانسان عن مصيبة فكان لا ينقص له حسرة ولا يذهب عنه حقد ولا يستمتع بشىء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع المغضبات وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة ولا ذهولا من حاسد أو قاصد مضرة . فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان . وجعل للانسان فى كل منهما ضروباً من المصالح . ثم انظر الى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء ، فلولاه لم تقل العثرات ولم تقض الحاجات ولم يقر الضيف ولم يثمر الجميل فيفعل ولا يتجافى عن القبيح فيترك حتى ان كثيراً من الامور الواجبة : انما تفعل لسبب الحياء من الناس . فترد الامانات وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما ويعف عن فعل الفواحش الى غير ذلك من أجل الحياء ، فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة فى هذه الصفة ، وانظر ما أنعم الله به من النطق الذى يميز به عنه البهائم . فيعبر بما فى ضميره ويفهم عن غيره مافى نفسه ، وكذلك نعمة الكتابة التى تفيد أخبار الماضين للباقين ، وأخبار الباقين للآتين ، وبها تخلد فى الكتب العلوم والآداب ، ويعلم الناس ذكر ما يجرى

بينهم فى الحساب والمعاملات ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست العلوم وضاعت الفضائل والآداب وعظم الخلل الداخل على الناس فى أمورهم بسبب عدمها . فان قلت : ان الكلام والكتابة مكتسبة للانسان وليست بأمر طبيعى ، ولذلك تختلف الخطوط بين عربى وهندى وروى الى غير ذلك ، وكذلك الكلام هو شىء يصطلح عليه ، فلذلك اختلف . قلنا ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة والذهن والفكر الذى يهتدى به ليس بفعل الانسان ، ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبدا ، فسبحان المنعم عليه بذلك ، وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعى فيه والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبدا ، فسبحان المنعم عليه بذلك . ثم انظر الى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها ، وما خلق فيه من الحسد فبه يسعى فى جلب ما ينتفع به غير أنه مأمور بالاعتدال فى هذين الأمرين فان جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين ، بل يجب أن يقتصر فى حالة الغضب على دفع الضرر ، وفى الحسد على الغبطة ، وهى إرادة ماينفعه من غير مضرة تلحق غيره ، ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضا صلاحه ، فمن ذلك الأمل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة ، فان الخلق أول ما يخلق ضعيف ، فلولا أنه يجد آثار قوم أحلوا وعمروا لم يكن له محل يأوى اليه ولا آلة ينتفع بها ، فكان الأمل سببا لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين ، وهكذا يتوارث الى يوم الدين . ومنع الانسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة ، فانه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهن الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا لغير ذلك ، ولو علمها وكانت طويلة لانهمك فى الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات ، ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عن ما يؤديه الى إتلافه ، فكان فى جهله بمدة عمره مصلحة

حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ، ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوات ، ثم انظر الى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها ، وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها ، وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيور يلتذ بسماعها ، ونقود وجواهر يقتنيها ويصل بها الى أغراضه ويجدها فى مهماته ، وعقاقير يستعملها لحفظ صحته ، وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وأزهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها ، وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ماخلق فيه من العقل والفهم ، فانظر ماذا ركب الله فيه من العجائب . ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد فى تملك ما ينتفع به بنو آدم ليتميز منهم الفقير من الغنى ، فيكون ذلك سبباً لعمارة هذه الدار ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم فى غالب الأحوال ، فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبى فانه يشتغل لنقص عقله فيما يضرّ به نفسه ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالا عليه ، وكم عسى أن يعدّ العادّ من الحكم واللطائف التى يقصد بها قوام العالم وعبادته الى الأجل المعلوم وهى مما لا تدخل تحت حدّ ولا يحصرها عدّ ، ولا يعلم منتهى حقائقها و إحصاء جملتها الا الحكيم العليم الذى وسعت رحمته وعلمه كل شىء وأحصى كل شىء عددا .

خاتمة لهذا الباب

اعلم أن البارى سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمى وكرمه . فقال سبحانه ـ ولقدْ كرَّمنا بَنى آدمَ وحملناهمْ فى البرِّ والبحرِ ورزقناهمْ منَ الطيباتِ وفضَّلناهمْ على كثيرٍ ممنْ خلقنا تفضيلاً ـ فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل الذى تنبه به على البهجة وألحقه بسببه بعالم الملائكة حتى تأهل به لمعرفة

بارئه ومبدعه بالنظر فى مخلوقاته واستدلاله على معرفة صفاته بما أودعه فى نفسه من حكمة وأمانة . قال الله العظيم - وفى أنفسكمْ أفلاَ تُبصرونَ - فكان نظره فى نفسه ، وفيما أودع البارئ سبحانه فيه من العقل الذى يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود بارئه ومدبره وخالقه ومصوّره ، فانه ينظر فى العقل كيف فيه التدبير وفنون العلم ومستقر المعرفة وبصائر الحكمة والتميز بين النفع والضر ، وهو مع القطع بوجوده لايرى له شخصاً ولا يسمع له حسا ولا يجسّ له مجسا ولا يشم له ريحا ولا يدرك له صورة ولاطعما وهو مع ذلك آمر ومطاع وراج زيادة ومفكر ومشاهد الغيوب ومتوهم للأمور : اتسع له ماضاق عن الأبصار ووسع له ماضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سمواته وما فوقها وأرضه وماتحتها حتى كأنه شاهده أبين من رأى العين ، فهو موضع الحكمة ومعدن العلم : كلما ازداد علما ازداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرك فلا يكاد أن يميز بين الهمة بالحركة وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق . وان كانت الهمة قبل ، وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه : إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفة وهيئة أكثر من الاقرار بأنه مسلم للذى وصفه للعلم به ، ومقرّ بالجهل بنفسه وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير ، ويفرق بين دقائق الصنع ، وتجرى الأمور وقد تدبرها ، ويتوهم العواقب ويمثلها ، ويدل على الأمور على اختلافها ، فدلّ جهله بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصوّر مدبر مقهور ، لانه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين : يريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينساه فيذكره ويريد أن يسر فيحزن ، ويريد أن يغفل فيذكر ، ويريد أن يتنبه ويتيقظ ، فيسهو ويغفل ، دلالة على أنه مغلوب مقهور وهو مع ماعلم جاهل بحقائق ماعلم

ومع ما دبر لا يدرى كم مدى مبلغ صوته ولا كيف خروجه ولا كيف اتساق حروف كلامه ، ولا كم مدى مبلغ نظره ، ولا كيف ركب نوره ، ولا كيف أدرك الأشخاص ، ولا كم قدر قوته ، ولا كيف تركبت إرادته وهمته ؟ فاستدل بعامه وجحده عن حقيقة ماعلم أنه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم عز وجل ، ثم انه خلق فى الانسان الهوى موافقا لطباعه ، فان استعمل نور العقل فيما أمر به ورد مورد السلامة ، وفاز غدا بدار الكرامة ، وان استعمله فى أغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ماهو متوقع له فى الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب . وهو الآلة له فى عمل الصنائع وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها فى ذهنه وتخيله واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة فى كل أمة زمان ، واستحسان مايحسن فى عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد . فانظر ما شرف هذا الانسان أن خلق فيه مايفيده هذه المعارف ، فان الأوانى تشرف بشرف مايوضع فيها ، ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك ، ولما سبق فى علم البارئ سبحانه وإرادته وحكمته بمصير الخلق الى دار غير هذه الدار ولم يجعل فى قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار ، بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذى وهبهم إياه بنور الرسالة اليهم ، فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته ومنذرين لأهل معصيته ، فمدّهم بالوحى وهيأهم لقبوله وتلقيه ، فكانت أنوار ما جاء به بالوحى من عند الله بالنسبة الى نور العقل كالشمس بالاضافة الى نور النجم ، فدلوا العباد على مصالح دنياهم فيما لا تستقلّ بادراكه عقولهم وأرشدوهم الى مصالح أخراهم التى لاسبيل للعباد أن يعرفوها الا بواسطتهم ، وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ماجاءوا به ما أوجب

الاذعان والانقياد لصدق أخبارهم ، فتمت بذلك نعمة الله على عباده ، وظهرت كرامته وثبتت حجته عليهم . فانظر ما أشرف الآدمى ونسله الذين ظهرت منهم هؤلاء الفضلاء الذين هم قابلون لهذه الزيادات الفاضلة ، ثم تضافرت أنوار الشرائع التى هى كالشمس ، وأنوار العقول التى هى كالنجم . فتمت سعادة من سبق له منّ الله الحسنى ، وشقاوة من كذب ولم يرد الا الحياة الدنيا . ثم ان الله تبارك وتعالى منّ على الانسان بأن خصه برؤيا يراها فى منامه أوفى عينه كشبه المنام يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس مايعرفه وهى مبشرة أومنذرة له لما يتوقعه بين يديه ، كل ذلك مواهب وكرامات من جود الله سبحانه ، وجعل الله استقامته على الطاعة فى قلبه وجوارحه سببا لصدقها فى غالب الأمر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها ، وهى الأمور التى انفرد الله بعلم العاقبة فيها وأطلع على بعض الأمور منها من شاء .

باب فى حكمة خلق الطير

قال الله سبحانه وتعالى — أَلَمْ يروْا إِلَى الطيرِ مُسَخَّراتٍ فِي جوِّ السَّماءِ ماَ يُمسكهنَّ إلاَّ اللهُ — اعلم رحمك الله : أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضى الخفة للطيران ولم يخلق فيه مايثقله ، وخلق فيه مايحتاج اليه ومافيه قوامه وصرف غذاءه ، فقسم لكل عضو منه مايناسبه ، فان كان رخوا أويابساً أو بين ذلك انصرف الى كل عضو من غذائه ماهو لائق به ، فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله واعانة له فى ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه واسعة الأسفل ليثبت فى موطن على الأرض ، وهى خف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه ، وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغنى به عن الريش فى الحر والبرد ، وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لأنه فى رعيه ، وطلب قوته لايستغنى عن مواضع فيها الطين

والماء ، فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه ، فأغناه سبحانه عن الريش فى موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران ، وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها : إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى لا فى البرارى ولا فى البحار حتى ينكبّ على صدره ، وكثيرا ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة ، ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه وخلق صدره ودائره ملفوفاً مربياً على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يخرق فى الهواء بغير كلفة ؛ وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران ، وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ، ويصلح لما يغتذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك ، فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر ، وماقوته اللحم ومنه عرض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً ، ومنه معتدل اللقط وآكل الخضر ، ومنه طويل المنقار للحصر وجعله صلباً شديداً شبه العظم ، وفيه ليونة ما هى فى العظم لكثرة الحاجة الى استعماله وهو مقام الاسنان فى غير الطير من الحيوان ، وقوى سبحانه أصل الريش ، وجعله قصبا منسوبا فيما يناسبه من الجلد الصلب فى الأجنحة لأجل كثرة الطيران ، ولان حركة الطيران قوية فهو محتاج الى الاتقان لأجل الريش ، وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد ومعونة متخللة الهواء للطيران وخص الأجنحة بأقوى الريش وأنبته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة اليه ، وجعل فى سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالا له وثبت أصل جميعه لانه جبيرته وجمله ، وجعل فى ريشه من الحكمة : أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه . فان أصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود الى خفته ، وجعل له منفذا واحدا للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته ، وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته فى

طيرانه ، فلولاه لما مالت به الأجنحة فى حال الطيران يمينا وشمالا . فكان له بمنزلة رجل السفينة الذى يعدل بهاسيرها ، وخلق فى طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه يبتلعه بلعا بلا مضغ جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية ، وصار يزدرد ما يأكله صحيحا وأعين بفضل حرارة فى جوفه تطحن الطعام طحنا يستغنى به عن المضغ وثقل الاسنان ، واعتبر ذلك بحب العنب وغيره فانه يخرج من بطون الحيوان صحيحا وينسحق فى أجواف الطير ، ثم انه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران ، فانه لوخلقت فراخه فى جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها ، وتعوق عن النهوض للطيران . أفلا ترى كيف دبر كل شىء من خلقه بما يليق به من الحكمة . انظر الى من أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة ، من ألهمه أن يلتقط الحب ، فاذا ماع فى باطنه غذى به أفراخه وهذا نوع من الطير ، ثم انظر مع هذا كيف احتمل هذه المشقة ، وليست له روية ولا فكر فى عاقبة ولا له أمل يأمله فى أفراخه كما يأمل الانسان فى ولده من العز والرفد وبقاء الذكر . فهل هذا قطعا الا إلهام إلهى من فعل الله سبحانه . انظر كيف ألهم معرفة حمل الأنثى منه بالبيض ، فألهموا حينئذ حمل الحشيش وتوطئته فى موضع التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض ، ويكون البيض محفوظاً فى المهاد الذى يمهدونه ويستحسنونه فى حال تحضينه . انظر الى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه ، وان اتفق فى البيض فساد بسبب عرق قام وتركه ، ثم انظر إلهامه بما يزق به فرخه ، فانه أولا يزقه بالريح لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها ، ثم بعد ذلك يزقه من أول هضم ، ثم اذا ماع الغذاء فى حوصلته يزقه به حتى يدرجه يفعل مراراً حتى يولى حوصلته ، فانه لو أرسله اليه حبا صحيحاً لعجز عن هضمه لضعف

جسده ، فانظر ان كان هذا من فعل الطير وحكمته ، ثم انظر عند خروج الفرخ من البيضة كيف يسنده الى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به ، ومن الطير مما يخلق على هيئة أخرى لحكمة أخرى ، ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر فى نوع واحد : بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء ، وذلك أن الدجاج مافيهم أهلية الزق : بل جعلت أفراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة ، ثم انظر فى الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علما بأن عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم ، ثم انظر الى خلق البيضة ومافيها من الحكم لله ، ففيها المخ الأصفر الحابر والماء الأبيض الرقيق ، فبعضه لينشأ منه جسده . وبعضه يغتذى به الى أن تنشق عنه ، ومافى ذلك من التدبير المحكم العجيب ، وكيف جعل معه غذاءه فى بيضة مغلقة تلتقى به الى حين كماله فيها وخروجه منها ، ثم انظر فى حوصلة الطائر ومافى حلقها من التدبير ، فان مسلك طعامه الى القانصة ضيق لا ينفذ اليه الا قليلا قليلا ، فلو كان لا يلتقط حبة حتى تصل الأولى الى القانصة لطال الأمر عليه مع مافيه من شدة الحذر وتجنبه مايؤذيه ، فصار مايحتكره احتراسا لشدة حذره ، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليودع فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ، ثم ينفذه الى القانصة على مهل ، وفيها حكمة أخرى ، فان الطير الذى يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه ، ثم تأمل ريش الطائر فانك تجده منسوجا نسج الثوب من سلوك رقاق ، وفيها من اليبس ما يمسك ماحولها ، ومن اللين ما لا ينكسر معه وهى خاوية ، قد ألف بعضها الى بعض : كتأليف الخيط الى الخيط والشعر الى الشعر ، ثم تجده اذا فتحته أعنى النسيج ينفتح قليلا ، ولا ينشق ليدخله الريح فتنقله عن طيرانه ، وتجد فى وسط الريشة عموداً غليظاً يابساً مثبتا . قد

نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته ، فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء وهي مع صلابته مجوفة ليخف عليه طيرانه . انظر الى الطائر الطويل الساقين والحكمة فى طولهما أنه يرعى أكثر رعيه فى صحصاح كأنه فوقه مراقب يتأمل ما يدبّ فى الماء ، فاذا رأى شيئاً من حاجة خطا خطوا رفيقا حتى يتناوله ، فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو الى الصيد يصل بطنه الى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه . انظر الى العصافير وغيرها فانها تطلب رزقها فى طول نهارها فلا هى تفقده ولا هى تجده مجموعا محله ، وهو أمر جار على سنة الله فى خلقه ، فان صلاحهم فى السعى فى طلب الرزق ، فان الطير لو وجده ميسرا أكبّ عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلئ ، فيثقل عن الطيران ولا يستطيع رده أعنى قذفه من بطنه مثل طير الماء الكبير فانه يأكل السمك ، فاذا امتلأ منه وأزعجه مزعج تقايأه حتى يخف للطيران ، وكذلك الناس أيضا لو وجدوه بلا سعى لتفرغوا إفراغا يوقعهم فى غاية الفساد . انظر الى هذه الأصناف من الطير التى لا تخرج الا ليلا مثل البوم والهام والخفاش ، فان عيشها يتيسر فى الجوّ ، وكالبعوض والفراش وشبهه فانها منبثة فى هذا الجو ؛ فجعل عيشه فى موضع أقرب اليه من الأرض ، ولعلّ نوره لا يعينه أن يلتقط من الأرض بدليل أنه لا يظهر فى نور الشمس الا مختفيا ، فألهم أن يعيش فى الجو من الفراش وغيره . انظر الى الخفاش لما خلق بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه ، وجعل له فم وأسنان وكل ما فى البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وأقدره على الطيران . فأظهر سبحانه فيه أن قدرته على الطيران لا تقتصر على ما خلق له الريش ولا تنحصر فى نوع واحد ، لانه خلق هذا النوع ، وخلق من السمك جنسا يطير على وجه البحر مسافة طويلة ، ثم ينزل الماء فسبحان القاضى العليم . انظر الى الذكر والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة ، فاذا احتاج

أحدهما الى قوته ناب الآخر الى آخر وقت الحضانة ، ثم ألهمهما الحرص على الحضانة فلا يطيلان الغيبة على البيض اذا خرجا لنيل القوت حتى انهما يجتمع فى أجوافهما البراز للحرص على الرقاد ، فاذا اضطر خروج البراز أخرجه دفعة واحدة . ثم انظر الى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقرها ، ولا يدعها تستقر خارجا عن الوكر خشية أن تضع البيض فى غير الموضع المهيأ لوضعه . انظر كيف يزقّ أفراخه ويعطف عليها مادامت محتاجة الى الزق حتى اذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها صارت اذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها ، ثم انظر ماخلق الله تعالى فى الكوسر من شدة الطيران حتى لا يسبق له من يطلبه ، ومن قوة المخلب وحدّته فى المنقار والأظفار ، فكأن مخلبها مدية للقطع ، وكأن مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى يصل ما يحتاجه من قوتها . انظر الى طير الماء لما جعل قوته فى الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه ، فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به فى تحصيل قوته .

باب فى حكمة خلق البهائم

قال الله سبحانه وتعالى — والخيلَ والبغالَ والحميرَ لِتركبوها وزينةً — اعلم وفقك الله وإيانا : أن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتنانا عليهم كما نبهت على ذلك هذه الآية ، فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد ، وضم بعضها الى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة ، وجعل ذلك تجلدا اشتمل على أبدانها كلها لتضبطها وتتقها لأنها أريد منها القوّة للعمل والحمل ، ثم خلقها سبحانه سميعة بصيرة ليبلغ الانسان حاجته ، لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الانسان ولا وصل بها الى

شيء من مآربه ، ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله لتذل للانسان فلا تمتنع عليه اذا أكدّها عند حاجته الى اكدادها فى الطحن ، وحمل الأثقال عليها الى غير ذلك . وقد علم الله أن بالناس حاجة الى أعمالها وهم لا يطيقون أعمالها ولا يقدرون عليها ، ولو كلف العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التى يخصون بعملها وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها وتحصيل الفضائل من العلوم والآداب ، ولكان ذلك مع اتعابه لأبدانهم يضيق عليهم معايشهم . فكان قضاؤه على هذا وتسخيرها لهم من النعم العظيمة . انظر فى خلق أصناف من الحيوان وتهيئها لما فيه صلاح كل صنف منها ، فبنو آدم لما قدروا أن يكونوا ذوى علاج للصناعات واكتساب العلوم وسائر الفضائل ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والتجارة وغير ذلك خلقت لهم العقول والأذهان والفكر ، وخلقت لهم الأكفّ ذوات الأصابع ليتمكنوا من القبض على الأشياء ومحاولات الصناعات . وآكلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب . وآكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد : خلقت لبعضها أظلاف كفتها خشونة الأرض اذا جالت فى طلب المرعى ، ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كأخمص القدمين لتنطبق على الأرض وتهيأ للحمل والركوب . تأمل التدبير فى خلق آكلات اللحم من الحيوان كيف خلقت ذوات أسنان حداد وتراس شداد وأفواه واسعة وأعينت بسلاح وأدوات تنال بذلك ماتطلبه ، فان ذلك كله صالح للصيد ، فلو كانت البهائم التى عيشها النبات ذوات مخالب وأنياب كانت قد أعطيت مالا تحتاج اليه ، لانها لا تصطاد ولا تأكل اللحم ، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ماتحتاج اليه من السلاح الذى به تصطاد . فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد

من أصناف الحيوان مايشاكله وما فيه صلاحه وحياته . انظر الى أولاد ذوات الأربع كيف تجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج الى تربية وحمل كما تحتاج الآدميون : إذ لم يجعل فى أمهاتها ماجعل فى أمهات البشر من العقل والعلم والرفق فى أحوال التربية والقوة عليها بالفكر والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره ، فلذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها . ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج يدرج ويلقط عقيب خروجها من البيضة ، وما كان منها ضعيفا لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل فى الأمهات عطفا عليها ، فصارت تعين الطعام فى حواصلها ، ثم تمجه فى أفواه فراخها ولا يزال كذلك حتى ينهض وتستقل ، فكل أعطى من اللطف والحكمة بقسط . فسبحان المدبر الحكيم . انظر الى قوائم الحيوان كيف ينتقل أزواجا لتتهيأ للمشى ، فلو كانت أفراداً لم تصلح لذلك ، لان المأتى منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على مالم ينقله منها ، فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى ، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين ، وذلك من خلاف لانه لوكان ينقل قائمتين من أحد جانبيه ، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير ولوكان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه ، فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على اليسرى من مؤخره ، ويعتمد الآخرين من خلاف أيضا فتثبت على الأرض ولا تسقط اذا مشى لسرعة التحاقهما فيما بين المشى والاعتماد . أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن ، والفرس مردعا منها ، والبعير لاتطيقه عدة رجال لو استعصى ، وينقاد لصبى صغير ، والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرثه ، والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة فى الحروب وقاية لراكبها ، والقطيع من الغنم يرعاها صبى واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها ، وربما أعجزت

طالبها، وكذلك جميع الحيوان المسخر للانسان، وما ذلك الا لأنها عدمت العقل والتروّى. فكان ذلك سببا لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس، وان أكدّها فى كثير من الأحوال. وكذلك السباع لوكانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكتهم نكاية شديدة عظيمة ولعسر زجرها ودفعها، ولاسيما اذا اشتدت حاجتها فى طلب قوتها ويشتد خللها: ألا ترى اذ أحجمت عن الخلق وصارت فى أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها حتى صارت لا تظهر ولا تنبعث فى طلب قوتها فى غالب أحوالها الا ليلا، فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الانس: بل هى ممنوعة منهم، ولولا ذلك لساورتهم فى منازلهم وضيقت عليهم فى مساكنهم: ألا ترى الكلب وهو من بعض السباع كيف سُخر فى حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل الى صاحبه مايؤذيه، ثم انه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء، فطبع على هذه الخلال لمنفعة الانسان فى الحراسة والاصطياد. ولما جعله البارى سبحانه حارساً أمده بسلاح، وهى الأنياب والأظفار واللهث القوى ليذعر به السارق والمريب. وليجتنب المواضع التى يحميها، ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحا مثبتا على قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة وجعل فرجها بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها: إذ لوكان أسفل باطنها كالآدمى لم يتمكن الفحل منها. ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحا كما يأتى الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير، ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها، فاذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز الفحل حتى يتمكن من إتيانها فلما لم يخلق فى الموضع المخلوق فى الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الأمر الذى به دوام التناسل، وذلك من عظيم العبر، ثم انظر كيف كسيت

أجساد البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات ، وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفا ، وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر فى غيره ، ولما كانت البهائم لا أذهان لها ولا أكف ولا أصابع تهيأ للأعمال . كفيت مؤنة مايضر بها بأن جعلت كسوتها فى خلقتها باقية عليها مابقيت فلا تحتاج الى استبدال بها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمى ، فانه ذو فهم وتدبير وأعضاء مهيأة لأعمال ما يقترحه وله فى أشغاله بذلك صلاح وفيه حكمة ، فانه خلق على قابلة لفعل الخير والشر وهو الى فعل الشر أميل الى فعل الخير ، فجعلت الأسباب التى يحصل بها ماهو محتاج اليه ليشتغل بها عما فيه فساده وهلاك دينه ، فانه لو أعطى الكفاية فى كل أحواله أهلكه الأشر والبطر ، وكان من أعظم الحيوانات فساداً فى الأرض ولتصرف بعقله الذى هو مخلوق لينال به السعادة الى مافيه شقاوته ، ثم ان الآدمى مكرم يتخير من ضروب الملابس ماشاء ، فيلبس منها ماشاء ويخلع منها ماشاء ويتزين بها ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء ويكمل بها زينته وجماله وبهاءه فى عين من يصحبه ويحب قربه ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه ، وهذا من باب النعمة عليه والكرامة له بخلاف البهائم فانها غنية عن هذا كله . انظر فيما ألهم الله البهائم والوحوش فى البرارى ، فانها توارى أنفسها كما يوارى الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه الى موضع يحتجب فيه حتى يموت والا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها ، فانك لو طلبت منها شيئا لم تجده وليست قليلة فيخفى أمرها لقلتها ، بل لو قال قائل انها أكثر من الانس لم يبعد ، لان الصحارى قد امتلأت من سباع وضباع وبقر وحمير ووعل وابل وخنزير وذئاب وضروب من الهوام والحشرات وأصناف من الطير وغير ذلك مما لا يحصى عدده ، وهذه الأصناف فى كل يوم يخلق منها ويموت منها ولا يرى

لها رمم موجودة . والذى أجرى الله به عادتها أن تكون فى أماكنها ، فاذا أحست بالموت أتت الى مواضع خفية فتموت فيها . فانظر هذا الأمر الذى ألهمت له هذه الأصناف فى دفن جثثها بما فطرت عليه وشخص لبنى آدم بالفكر والتروى . تأمل الدواب كيف خلق أعينها شاخصة أمامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطا ولا تتردى فى حفرة ، واذا قربت من ذلك نفرت منه وأبعدت نفسها عنه وهى جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه . أليس الذى جبلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها لينتفع بها ؟ ثم انظر الى فمها مشقوقا الى أسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعى . ولو جُعل كفم الانسان لم تستطع أن تتناول شيئاً من الأرض وأعينت بالحجفلة لتقصم بها ما قرب منها ، فألهمت قصم مافيه صلاحها وترك مالا غذاء لها فيه ولاصلاح . انظر ما كان من البهائم كيف يمزز الماء فى شربه مزاً . وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما فى شربها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكا يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه . فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الانسان ، ثم انظر الى ذنب البهيمة وحكمته ، وكيف خلق كأنه غطاء فى طرفه شعر ، فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها ، ومنها أن ما بين دبرها وطرق بطنها أبدا يكون فيه وضر يجتمع بسببه الذباب والبعوض ، ويجتمع أيضا على مؤخرها ، فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها . فصار كأنه مدية فى يدها تذبّ بها وتطرد عنها مايضرّبها ، ثم انها تعطف برأسها فتطرد به ما فى مقدمها من الذباب أيضا ، ثم ان الدابة أيضا أعينت بحركة مختصة . وذلك أن الذباب اذا وقع عليها فى مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكا تطرد به الذباب وغيره عنها . وذلك من عجيب الحكمة فيما لاينتفع بيدين ، ومن الحكمة فيه أيضا أن الدابة تستريح بتحريكه يمنة ويسرة

لأنها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها أيضا بالحمل لبدنها والتصرف ، فجعل لها فى تحريك ذنبها منفعة وراحة ، وأعينت بسرعة حركته حتى لا يطول ألمها بما يعرض لها ، ومن الحكمة فيه أن البهيمة اذا وقعت فى بركة أو مهواة أو وحلت فى طين أو غيره . فلا تجد شيئا أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها ، ومن ذلك اذا خيف على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب أو ليسبقها رأسها فتنكبّ على وجهها ، فيكون مسكها بذنبها فى هذه المواضع يعدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها الى غير ذلك من مصالح لا يعلمها الا الحكيم العليم . انظر الى مشفر الفيل ، ومافيه من الحكمة والتدبير فانه يقوم مقام اليد فى تناول العلف وايصاله الى فمه ، فلولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئا فى الأرض اذلم يجعل له عنق يمده كسائر الأنعام ، فلما عدم العنق فى هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم يمده فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير . انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء الى فمه ومنخراً يتنفس منه وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره أو يناول من هو راكب عليه . انظر الى خلق الزرافة لما كان منشؤها فى رياض شاهقة خلق لها عنقاً طويلا لتدرك قوتها من تلك الأشجار . تأمل فى خلق الثعلب فانه اذا حفر له بيتاً فى الأرض جعل له فوهتين : احداهما ينصرف منها والأخرى يهرب منها ان طُلب ويرفق مواضع فى الأرض فى بيته ، فان طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه فى المواضع التى رفقها ، فخرج من خير المنافذ وهى المواضع التى تحتها . انظر ما خلق الله تبارك وتعالى فى جبلته لصيانة نفسه . وجملة القول فى الحيوان : أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق ، فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق فيه الانقياد والتذلل وجعل قوته النبات ، وما جعل منه للحمل جعله هادىء الطبع قليل الغضب منقاداً منفعلا على صور

يتهيأ منه الحمل ، وما كان منه ذا غضب وشر الا أنه قابل للتنظيم اذا نظم خلق فيه هذا القبول للتعليم ليستعين العباد بصيده وحراسته وأعين بآلات قد نقدم ذكرها ، ومن جملة ذلك الفيل فانه ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به فى الحمل والحروب ، ومنها ماله غضب وشر الا أنه متأنس بالانسان لمنفعته كالهرة ، ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من الألفة والتأنس ، فمن ذلك الحمام يألف موضعه فسهل بسببه الاخبار بسرعة اذا دعت حاجة الى ذلك . وجعله الله سبحانه وتعالى كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به ، ومن ذلك البازى ، فان طباعه تنتقل الى التأنس ، وان كان فى طبعه مباينا الا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقى يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد ، وما خفى من الحكم فى خلق الله تعالى أكثر مما علم .

باب فى حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت

ودود القزّ والذباب وغير ذلك

قال الله سبحانه وتعالى — وما منْ دابةٍ فِى الأرضِ ولاَ طائرٍ يطيرُ بِجناحَيْهِ إلاَّ أممٌ أمثالُكمْ ما فرَّطنا فى الكتابِ منْ شىءٍ ثمَّ الى ربِّهمْ يحشرونَ — انظر الى النمل وما ألهمت له فى احتشادها فى جمع قوتها وتعاونهم على ذلك وإعداده لوقت عجزها عن الخروج ، والتصرف بسبب حر أو برد ، وألهمت فى تقلب ذلك من الحزم مالم يكن عند من يعرف العواقب ، حتى تراها فى ذلك اذا عجز بعضها عن حمل ماحمله أو جهد به أعانه آخر فيه ، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذى لا يتم الا بالتعاون ، ثم انها ألهمت حفر بيوت فى الأرض تبتدئ فى ذلك باخراج ترابها وتقصد الى الحب الذى منه قوتها فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض ، فما خلق هذا فى

جبلتها الا الرحمن الرحيم ، ثم اذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف ، ثم انها لا تتخذ البيوت الا فيما عـلا من الأرض خوفا من السيل أن يغرقها ، ثم انظر الى النحل وما ألهمت اليه من العجائب والحكم ، فان البارى سبحانه جعل لها رئيسا تتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها ، فان ظهر مع الرئيس الذى تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر . وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافـتراق ، لأنهما اذا كانا أميرين وسلك كل واحـد منهما فجأ افترق النحل خلفهما ، ثم انها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار فيستحيل فى أجوافها عسلا ، فعـلم من هذا التسخير ما فيـه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما أخبر سبحانه وتعـالى ، وفيـه غذاء وملاذ للعباد ، وفيـه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بنى آدم . فهى مثل ما يفضل من اللبن الذى خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها وما فضـل من ذلك ، ففيـه من البركة والـكثرة ما ينتفع به الناس ، ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع فى أرجلها لتوعى فيه العسل وتحفظه ، فلا تـكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع فى الأجناح . فانظر فى هذه الذبابة : هل فى علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره فى الشمع وصيانته فى الجبال والشجر فى المواضع التى تحفظه ولا يفسـد فيها ، ثم انظر لخروجها نهارا لرعيها ورجوعها عشية الى أماكنها ، وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها فى ترتيب بيوتها من الحـكمة فى بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ، ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعداً عن مواضع العسل ، وفيها غير هـذا مما انفرد الله بعلمه . انظر الى العنـكبوت وما خلق فيها من الحـكمة ، فان الله خلق فى جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه وشركا لصيدها فهو مخلوق من جسدها ، وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف الى تقويم جسـدها ، والى

خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبداً مثل الشرك ، وفى ركن الشرك بيتها وتكون سعة بيتها بحيث يغيب شخصها ، والشرك من خيوط رقاق تلتفّ على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك ، فاذا أحست أن شيئاً من ذلك وقع فى شركها خرجت اليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت الى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات ، وان كانت مستغنية فى ذلك الوقت شكلته وتركته الى وقت حاجتها . فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها ، فبلغت فى ذلك ما يبلغه الانسان بالفكرة والحيلة ، كل ذلك لاصلاحها ولنيل قوتها واتعلم أن الله هو المدبر لهذا . ثم انظر من العجائب دود القز ، وماخلق فيه من الأشياء التى يتحير منها ويذكر الله عند رؤيتها ، فان هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الانسان ومنافعه ، فان هذا الحيوان الذى يخلق من جسمه الحرير ، وذلك أن صورة البزر تحضن حتى اذا حمى عاد دوداً كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيغتذى منه ، فلا يزال يرعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث الى عزل نفسه جوز الحرير ، فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة حرير ، ويصير هو جسما ميتا لاحياة فيه ، ثم انظر فان البارى سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله ، فعند ما ينتهى من عزل الحرير ويفنى ذلك الجسم يقلبه الله الى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط أوغيره وهو فى رأى العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى ، فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذى حضن أوّلا ، ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع اذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر . فانظر من ألهمها الرعى من ذلك الورق حتى يرتب منه ، ومن ألهمها الى عزل أجسادها حريرا حتى يعنى فيما عزلته ، ومن ربى لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة يمكن

فيها اجتماع الذكر والانثى لتناسلها ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولاهذا الاجتماع . ثم انظر مايسره البارى سبحانه من عمل ماعزلته هذه الدودة على من يعمله من بنى آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة . وانظر هذا التسخير العجيب فى هذا الحيوان اللطيف وما أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الاعتبار ، وما جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة العظام الرفات : سبحانه لا إله إلا هو العلىّ العظيم . ثم انظر الذبابة وما أعينت به فى نيل قوتها ، فانها خلقت بأجنحة تسرع بها الى موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها ويضرّ بها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل اثنتين ، فان أصابها عثار مسحته بالرجلين اللذين تليهما ، وذلك لرقة أجنحتها ، ولأن عينيها لم يخلق لهما الهداب ، لانهما بارزتان عن رأسها ، وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببنى آدم ويقع عليهم دائما وينغص عليهم عيشهم ليعرّفهم البارى سبحانه هوان الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها وهو وجه من وجوه الحكمة عليهم . تأمل كثيرا من الحيوان الصغير عند ما تلمسه يعود كأنه جماد لاحراك به ، ويبقى على ذلك ساعة ، ثم يتحرك ويمشى ، وهل ذلك الا لأن ما يصطاد انما يصطاد اذا دلت هيئته على عدم حياته ، فاذا كان شبيهاً بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة . تأمل العقاب عند مايصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر ، ولايجد فيها موضعاً لأكله ، فيصعد بها فى مخالبه حتى اذا أبعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها . فانظر كيف ألهم الطريق فى نيل قوته من غير عقل ولا روية . انظر الى الغراب لما كان مكروها خلق فى طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كأنه يعلم الغيب فيمن يقصده ، وألهم الاحتيال فى إخفاء عشه لصون فراخه وقلّ احتفاله بالأنثى خشية أن

تشغلة عن شدة حذره ، ولذلك قلّ أن يرى مجتمعاً مع أنثى ، فهذا أبداً دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة ، وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير ، ومن أرواث الداوب وقت تبرزها ، واذا وجد شيئاً من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتاً آخر ، فما خلق هذا فى طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب الا الله ، لأنه لا عقل له ولا روية . انظر الى الحدأة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها وحفظت فى أمر قوتها بقوة بصرها ، فانها ترى ما تقتات به فى الأرض مع علوها فى الجو فتنحط نحوه بسرعة ، وألهمت معرفة من هو مقبل ، ومن هو مدبر فتخطف ما تخطفه من الناس من ورائهم ، ولا تخطف مما يستقبلها لئلا يمنعها المستقبل بيديه ، وأعينت لما كانت غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنهم السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه ، فسبحان المدبر الحكيم . انظر الى الحيوان المسمى حرباء وما فيه من التدبير ، فانه خلق بطيئاً فى نهضته ، وكان لابدّ له من قوته ، فخلق على صورة عجيبة ، فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى يدرك صيده من غير حركة فى جسده ولا قصد اليه ويبقى جامداً كأنه ليس من الحيوان ، ثم أعطى مع السكون وهو أنه يتشكل فى لون الشجرة التى يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها ، ثم اذا قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق ، ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة ، وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أونحوه ، فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة ، واذا رأى ما يريعه ويخيفه شكل على هيئة وشكل ينفر منه من يصطاد من الحيوان ويكرهه . فانظر هذه الأشياء التى خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها . انظر الى الحيوان الذى يسمى سبع الذباب وما أعطى من الحيلة والرفق فيما يقتات به ، فانك تجده يحس

بالذباب قد وقع قريباً منه فيركد مليا حتى كأنه ميت أو جماد لاحراك به ، فاذا أحس أن الذباب قد اطمأن دبّ دبيباً رقيقاً حتى لا ينفره حتى اذا صار قريباً منه بحيث يناله بوثبة وثب عليه فأخذه ، فاذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب ، فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيغتذي منه بما يلائمه . فانظر الى هذه الحيلة من فعله أو هى مخلوقة من أجل رزقه فسبحان البارى الحكيم . انظر الى الذر والبعوض الذى أوهن الله قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل فى كتابه ، هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها وبصر تقصد به موضعاً تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها واخراج فضلته . وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت ، وهل يمكن أن يكون القوت فى غير محل واحد ، واخراجه فضلته من غير منفذ ، ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم ، فسوّاها وقدر أعضاءها واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها ، وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة ، فهى بعوضة صغرت فى النظر ، ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض من الملائكة ، فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين أرادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها وحسن اعتدال صورتها فى أعضائها لما قدروا على ذلك الا تظاهراً لمنظر العجز منهم على عدم علم حقيقة الخبر ، ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن مابين الجلد واللحم دماً وهو الذى منه غذاؤها ، ولولا معرفتها به لم تدم على مصه حتى تطعمه وكيف همتها التى قصدت بها أن تطير الى الموضع الذى ألهمها ربها أن فيه غذاءها ، وكيف خرق سمعها ، وكيف سمعت حسّ من يقصدها ، وكيف عرفت أن نجاتها فى الفرار اذا ولت هاربة ممن قصدها فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون ؛ ولو جزءوها مازدادوا فى أمرها إلا عمى وبعداً عن المعرفة ،

فهذه الحكمة والقدرة فى بعوضة ، فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علوا كبيرا .

باب فى حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم

قال الله تعالى ـ وَهوَ الذى سَخَّرَ البحرَ لِتأكلُوا منهُ لحماً طريّاً ـ انظر واعتبر بما خلق الله تعالى فى البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال ، وما فيه من الآيات البينات ، فانه تعالى لما جعل مسكنه فى الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة ، لأنه لا يتمشى وهو منغمس فى لجة الماء ، وخلقت له مكان القوائم أجنحة شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء ؛ وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه متراصة كأنها درع لتقيه ما يعتدى عليه وما يؤذيه ، وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهى القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلداً غليظاً متقناً يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره ، وخلق له بصراً وسمعاً وشماً ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه . وانظر كيف أعطى فى قعر البحر ما يناسبه فى نيل القوت والهرب مما يضره ، ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره ، وجعل أكثر أصنافه يحمل ، ولم يجعل الحمل منه مخصوصاً بالأنثى دون الذكر كحيوان البر : بل جعل الذكر والأنثى جنساً واحداً يخلق فى بطونها مرة واحدة فى وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر ، فيخلق من جوف واحدة عدداً لا يحصى ، وذلك من كل بزرة حوتا من الجنس ، ومن جنس آخر يخلق فى الأنهار وغيرها بغير توالد فيخلق منها أعداداً لا تحصر دفعة واحدة ، ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى ، وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح وما شاكلهما فيتولد منهما بيض ، فاذا فقس البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحد من الجنس ، ولما علم الله سبحانه وتعالى

أن السمك فى البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره ألقى الروح فى بزر جميعه عند ما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر الى أحد فى كمال خلقه . فانظر هذه الحكمة واللطف حيث لم يمكن حضانته فى البحر ولا تربيته ولا معونته ألبتة جعله مستقلا بنفسه مستغنياً عن ذلك كله ، ثم ان الله سبحانه كثره ، لأن منه قوت جنسه وقوتاً لبنى آدم والطير فلذلك كان كثيراً ، ثم انظر الى سرعة حركته وان لم تكن له آلة كغيره من الحيوان . وانظر الى حركة ذنبه وانقسامه ، وكيف يعتدل بذلك فى سيره كما تعتدل السفينة برجلها فى سيرها ، وخلقت أرياشه ألواحا من جانبيه ليعتدل بهما أيضاً فى سيره ، فهو بمنزلة المركب . وانظر الى عظامه كيف خلقت مثل العمد يبنى عليها ، ففى كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو ، فهو كانشاء المركب يمتد العظم الجافى الذى هو قوته ويخرج من أضلاع الى مراقى البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج اليه من الأمر وبه قوامه . وانظر الى ما كان منه كاسراً كيف أعين على نيل قوته لصلابة اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان حتى انه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ . انظر الى ما خلق الله فى البحر ضعيفا قليل الحركة مثل أصناف الصدف والحلزون كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذى هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه ، وجعل له بيتا وسكنا ، وجعل ما يوالى جسده ناعما أنعم ما يكون ، وربما ضرّ ببيت بعض أصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع ألبتة ، وأصناف منه خلقت فى محائز مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها ، فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطا ، وجعل لها أسبابا تلتصق بها فى الجبل فلا يستطاع اخراجها الا بغاية الجهد ، وجعل لها قوتا من رطوبة الجبل تتأتى حياتها بذلك . وأما الحلزون الذى بيته كأنه

كوكب فانه يخرج رأسه يرعى ، فاذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه فى بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة . فانظر هذا اللطف وأن الله لم يهمل شيئا . واعلم أن الله حافظ لما فى البحار وما فى الآكام والجبال . فتبارك الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . وانظر الى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير منها والجافى فى الأعماق ، وخلق الله فى جوفه صبغاً كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضلة غذائه كما يخلق اللبن فى الضرع ، فاذا أحسّ بما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه ، ثم يذهب فى الماء الذى تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغيير الماء فعل الله ذلك له وقاية لنفسه وفعل فيه مصالح أخرى لا يعلمها الا خالقها . انظر الى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل أجنحة الخفاش ينتقل بها عند وقوع الأنواع من موضع الى موضع فى الهواء من وجه الماء يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر . انظر الى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيرا ما يكون فى الأنهار ، وجعل الله فيه خاصية تصونه اذا اقتربت منه يد من يأخذه وفيه الروح تحذر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب ، فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله فى خلق واحد لامتلأت الكتب وعجز البشر عن استكمالها وماهو المذكور فى كل نوع تنبيه يشير الى أمر عظيم .

باب فى حكمة خلق النبات

وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى ـ أَمَّنْ خلقَ السَّمواتِ والأَرضَ وأَنزلَ لَكمْ منَ السَّماءِ ماءً فأَنبتنَا بهِ حدائقَ ذَاتَ بَهجةٍ ماكانَ لَكمْ أَنْ تنبتُوا شَجَرَهَا أَإِلهٌ معَ اللهِ بلْ همْ قومٌ يعدلونَ ـ انظر وفقك الله وسددك الى ما على وجه الأرض من النبات وما فى نظره من النعم فى حسن منظره وبهجته ونضارته التى لا يعدلها

شيء من مناظر الأرض ، ثم انظر الى جعل البارى فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التى لاتحصى ، وخلق فيه الحب والنوى مخلوقا لحفظ أنواع النبات ، وجعل الثمار للغذاء والتفكه والاتبان منها للعلف والرعى والحطب للوقود والأخشاب للعمارة وانشاء السفن ولغير ذلك من الأعمال التى يطول تعدادها والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح لاتحصى : أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها لكان يحصل من الخلل فى عدم الأخشاب والحطب والاتبان وسائر المنافع ، وان وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها . ثم انظر ماجعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل ، والحكمة فى زيادتها وبركتها حصول الاقتيات وما فضل ادّخر للأمور المهمة والزراعات ، وذلك فى المثال كملك أراد عمارة بلدة فأعطى أهلها من البذر ما يبذرونه وفضلة يتقوّتون بها الى إدراك زرعهم ، فهذه هى الحكمة التى أعم الله بها البلاد وأصلح بها العباد ، وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف ثمراتها حتى يكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه فى مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه ، ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف . تأمل فى هذه الحبوب فانها تخرج فى أوعية تشبه الخرائط لتصونها وتحفظها الى أن تشتد وتستحكم كما تخلق البشيمة على الجنين ، فأما البزر وما أشبهه من الحبوب ، فانه يخرج من قشور صلبة على رؤوسها أمثال الأسنة لتمنع من الطير . فانظر كيف حصنت الحبوب بهذه الحصون وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها ، وان كان يناله منها قوته الا أن حاجة الآدمى أشدّ وأولى . تأمل الحكمة فى خلق الشجر وأصناف النبات ، فانها لما كانت

محتاجة الى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل اليها غذاءها جعلت أصولها مركوزة فى الأرض لتجذب الماء من الأرض ، فتغتذى بها أصولها وماعلا منها من الأغصان والأوراق والثمار ، فصارت الأرض كالأم المربية لها ، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها ، وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان من أمهاتها ألم تر الى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل ، فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة فى الأرض ممتدة الى كل جانب تمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية : لاسيما فى الرياح العاصفة . فانظر الى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس فى أعمالهم بحكمة الله فى مصنوعاته ، وتأمل خلق الورق فانك ترى فى الورقة شبه العروق مبثوثة ، فمنها غلاظ ممتدة فى طولها وعرضها ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً ، لو كان مما يصنع بأيدى البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة الا فى مدة طويلة ، وكان يحتاج فيه الى آلات وطول علاج . فانظر كيف يخرج منه فى المدة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة ولا حركة الا قدرة البارى وإرادته وحكمه ، ثم انظر تلك العروق كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل اليه المادة وهى بمنزلة العروق المبثوثة فى بدن الانسان لتوصل الغذاء الى كل عضو منه ، وأما ماغلظ من العروق فانها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا ينتهك ويتمزق . ثم انظر الى العجم والنوى والعلة فيه ، فانه جعل فى جوف الثمرة ليقوم مقامه اذا عدم مايغرس أو عاقه سبب ، فصار ذلك كالشىء النفيس الذى يخزن فى مواضع شتى لعظم الحاجة اليه ، فان حدث على الذى فى بعض المواضع حادث وجد منه فى موضع آخر ، ثم فى صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها ، ولولاه

لسرحت وسرح الفساد اليها قبل إدراكها ، وفى بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل فى مصالح . ثم انظر الى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة والهيئة التى تخرج عليها ، وما فى ذلك من الطعم واللذة والاستمتاع للعباد ، ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب كالمودع فى الماء الذى يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته الا الله سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه . ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابة ، وخلقت فى ظاهره قشرة حتى انه بسبب ذلك ان سقط فى تراب أو غيره لا يفسد سريعا ، واذا ادخر لوقت الزراعة بقى محفوظا ، فصار قشره الخارج حافظا لما فى باطنه بمنزلة شىء نفيس عمل له صندوق يحفظه ، وعند ما يوضع فى الأرض ويسقى يخرج منه عرق فى النوى وغصن فى الهواء ، وكلما ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه الى الغصن فهى كذلك إذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار بالنقل أو بغيره ويصعد الماء فى جذورها الى أعالى الشجرة فيقسمه الله سبحانه بالقسط وميزان الحق فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة فى الأوراق لاتصال الغذاء الى جوانب الورق ما يليق بغذائها . وللثمار غذاء صالح لها ، وللأقماع واللجا والأزهار غذاء صالح لكل من ذلك ما يليق به ويصلحه ، فهو كذلك حتى يكمل فى الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها ، ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقا لخروج الثمار لان الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء ، فكانت الأوراق ساترة لها ، وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لاغنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير ذلك من الفساد . ثم انظر كيف رتب البارى سبحانه الأشجار والثمار والأزهار ، وجعلها مختلفة

الألوان والأشكال والطعوم والروائح . فأشكالها مابين طويل وقصير وجليل وحقير . وألوانها مابين أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ، ثم كل لون منها مختلف الى شديد وصاف ومتوسط ، وطعومها مابين حلو وحامض ومز وتفه ومر ؛ وروائحها الى عطرات لذيذات مختلفات ، وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ماذكرناه بما يشرح الصدور ، ويكشف للمتأمل منه كل مستور . فانظر ما أودع البارى سبحانه فيها من السر عند النظر اليها ، فانها تجلى عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها ، وأودع الله سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير . فمنها ماتقوى به القلوب ، ومنها أغذية تحفظ الحياة ، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها ، وخلق فيها بزوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها . انظر وتأمل مافى قوله عز وجل - وشجرةً تخرجُ منْ طُورِ سَيناءَ تَنبتُ بِالدُّهنِ وصبغٍ لِلآكلينَ - فأخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتا صافياً لذيذاً نافعاً كما أخرج اللبن من بين فرث ودم ، وأخرج من النحل شراباً عسلا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس ، ولوجمعت هذه الأشياء فى مستقرّ لكانت مثل الأنهار وكل ذلك لمنافع العباد . فانظر مافيه من العبرة لذوى الأفكار ، ثم انظر الى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة ، وكيف قسم البارى فى غذاء النخلة ، فقسم للجذور ما يصلح لها وللجريد ، وما فيه من السل مايصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها ، وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة ، وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة فى أول أمرها متراصة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة فى غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها حتى اذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء ، فانشق عنها غلافها على التدريج ، وهو الذى كان حافظا لها ، فيصير يفترق شيئا بعد شىء على قدر

ما تحتمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكمل قوتها ، فتظهر جميعها حتى مايضرّبها ما يلقاها من حر وبرد ، ثم تراها فى النضج والطيب الى بلوغ الغاية المقصودة منها فيلتذ حينئذ بأكلها ويمكن الانتفاع بادخارها ، وتصرف فى المآرب التى هيئت لها . واعتبر ذلك فى جميع الأشجار ، فانك ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يعتبر به كل ذى فهم ولب ، فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير ، فانك ترى فيها شحما مركوما فى نواصيها غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال فى تلوينه أو البناء الذى وسع أسفله للاستقرار ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدى ، بل تعجز الأيدى عن ذلك التداخل الذى نظم حبها فى الشحم المذكور ، وتراه مقسوما أقساما ، وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقى بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله ، ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفا بغير حواجز لم يمد بعضه بعضا فى الغذاء ، فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء : ألا ترى أصول الحب كيف هى مركوزة فى ذلك الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل الى الحب غذاءها ، والى حبة حبة غذاءها ومن رقها وضعفها لا تكدر على الأكل ولا تعرف بها ، ثم انظر مايصير من الحلاوة فى الحب من أصول مرة شديدة المرارة قابضة ، ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه عن الاضطراب وتحفظه ، ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات ، فان هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو مابين غذاء ودواء وتدعو الحاجة اليه فى غير زمانه الذى يجنى فيه من شجره فحفظ على هذه الصفة لذلك . انظر الى عود الرمانة الذى هى متعلقة به كيف خلق مثبتا متقنا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية

المحتاج اليها وهى من الثمرة المختصة بالانسان دون غيره من الحيوان . انظر الى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه ذلك وما فيه من التدبير ، فانه لما كان عود هذا النبات رقيقا ريانا ذا احتياج الى الماء لاينبت الا به جعل ما ينبت به منبسطا على وجه الأرض ، فلوكان منتصبا قائما كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها ، فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غاياتها ، فهى تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقى يمدها . وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق الا فى الزمن الصالح لها ولمن تناولها ، فهى له معونة عند الحاجة اليها ولو أتت فى زمان البرد لنفرت النفوس عنها ولأضرت بأكثر من يأكلها . ثم انظر الى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج الى التلقيح خلق فيها الذكر الذى تحتاج اليه لذلك حتى صار الذكر فى النخل كأنه الذكر فى الحيوان ، وذلك ليتمّ خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع . ثم انظر مافى النبات من العقاقير النافعة البديعة ، فواحد يفور فى البدن فيستخرج الفضلات الغليظة ، وآخر لاخراج المرة السوداء ، وآخر للبلغم ، وآخر للصفراء ، وآخر لتصريف الريح ، وآخر لشد البطن فى الطبيعة ، وآخر للاسهال ، وآخر للقىء ، وآخر لروائحه ، وآخر للمرضى والضعفاء ، وكل ذلك من الماء ، فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير .

باب ماتستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب

قال الله العظيم ـ تُسبحُ لهُ السمٰواتُ السبعُ والأرضُ ومَنْ فيهنّ ، وإنْ مِنْ شىءٍ إلاّ يسبحُ بحمده ولٰكنْ لاَ تفقهونَ تسبيحَهمْ إنهُ كان حليماً غفوراً ـ وقال تعالى ـ تكادُ السمٰواتُ يتفطّرْنَ مِنْ فوقهنّ والملاَئكةُ يُسبحونَ بحمدِ ربِّهمْ ويَستغفرُونَ لمنْ فى الأرضِ ـ وقال تعالى ـ ويسبحُ

الرَّعدُ بحمدهِ والملائكة من خيفتهِ - . اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ماتقدم ذكره فى هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وماظهر فى مخلوقاته من الحكم آيات بينات ، وبراهين واضحة ، ودلائل دالات على جلال باريها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته ، فانك اذا نظرت الى ماهو أدنى اليك وهى نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ماسبق التنبيه عليه وأعظم منه ، ثم انك اذا نظرت الى مستقرك وهى الأرض وأجلت فكرك فيها وأطلت النظر فى استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات وما أحيط بها من بحار زاخرات وماجرى فيها من الأنهار ومابث فيها من أصناف النباتات والأشجار وما بث فيها من الدواب الى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب ، ثم اذا نظرت الى سعتها وبعد أكنافها ، وعلمت عجز الخلائق عن الاحاطة بجميع جهاتها وأطرافها ، ثم اذا نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلق العظيم الى السماء ، وأن الأرض ومافيها بالنسبة الى السماء كحلقة ملقاة فى أرض فلاة وماذكره النظار من أن الشمس فى قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفا وستين جزءاً ، وأن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة ، ثم انك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السموات وهى مركوزة فيها ، ففكر فى السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ، ثم انظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك فى حدقة عينك مع صغرها ، وبهذا تعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتفاعه ولأجل البعد ترى هذه النيرات صغيرة فى رأى العين ، ثم انظر الى عظم حركتها وأنت لا تحس بها ولا تدركها لبعدها ، ثم انك لا تشك أن الفلك يسير فى لحظة قدر كوكب ، فيكون سيره فى لحظة قدر الأرض مائة مرة وأكثر من ذلك وأنت غافل عن ذلك ، ثم فكر فى عظم قدر هذه الأشياء ، واسمع قسم الرب سبحانه بها فى

مواضع من الكتاب العزيز . فقال عز وجل ـ والسَّماءِ ذاتِ البرُوجِ ـ والسَّماءِ والطارقِ وما أدراكَ ما الطارقُ النَّجمُ الثاقبُ ـ وقال ـ فلاَ أُقسمُ بمواقعِ النجومِ وإنهُ لَقسمٌ لو تعلمونَ عظيمُ ـ الى غير ذلك من الآى ، ثم ترقّ بنظرك الى ماحواه العالم العلوى من الملائكة ومافيها من الخلق العظيم ، وما أخبر به جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم عن إسرافيل عليه السلام ، يقول جبريل : فكيف لو رأيت إسرافيل ، وان العرش لعلى كاهله ، وان رجليه لفى تخوم الأرض السفلى ، وأعظم من هذا كله قوله عز وجل ـ وسعَ كرُسيهُ السَّموات والأرضَ ـ فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم ، فارفع نظرك الى بارئ هذا العظيم ، واستدلّ بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم ، وعلى جلاله وقدرته وعلمه ، ونفوذ مشيئته واتقان حكمته فى بريته ، وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله ، ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته ، فمن نظر فى ملكوت السموات والأرض ونظر فى ذلك بعقله ولبه ، استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره ، وليس للمتفكرين الى غير ذلك سبيل ، وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر فى عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقينا وإذعانا لبارئه وتعظيما ، ثم الخلق فى ذلك متفاوتون ، فكل مثال من ذلك على حسب ماوهبه له من نور العقل ونور الهداية . وأعظم شىء موصل الى هذه الفوائد المشار اليها تلاوة الكتاب العزيز ، وتفهم ماورد فيه وتدبرا آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه . فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين بما عند الله ، ثم انظر وتأمل ما نشير اليه ، فانك علمت على الجملة أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى به الى أن بلغ المنتهى ، ورأى من آيات ربه الكبرى . واطلع على ملكوت ربه وتحقق أمر الآخرة والأولى . ودنا من ربه حتى كان كقاب قوسين أو أدنى . فما ظنك بعلم من شرف بهذا المعنى ، ثم أمر بأن يقول – وقلْ ربِّ زِدني علماً – وعلمك بمعرفته ومنَّ عليك بنور هدايته واستعملنا وإياك بطاعته . وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه وجوده انه وليّ ذلك .

تم الكتاب

خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق السموات وزينها للناظرين ، ومدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، وبث فيها من المخلوقات ، وجعل فيها آيات للموقنين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الآمر بالتفكر فى مخلوقات الله ، الناهي عن التفكر فى ذات الاله ، وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى ، وأعلام الهداية وضياء الوجود الى يوم الدين .

وبعد فقد تمّ بعون الله تعالى طبع الكتاب الذى هو كاسمه « الحكمة فى مخلوقات الله عز وجل » فهو مع صغر حجمه غزير الفائدة ، كيف لا ومؤلفه حجة الاسلام الامام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى رحمه الله وأثابه رضاه .

وكان هذا الطبع الجميل بهمة من ديدنهم نشر الفضائل أصحاب :

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

بسراى رقم ١٢ بشارع التبليطه بجوار الأزهر الشريف

مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برئاسة الأستاذ الشيخ (أحمد سعد على)

*
* *

ذى القعدة سنة ١٣٥٢ هـ — مارس ١٩٣٤ م

ملاحظ المطبعة	مدير المطبعة
محمد امين عمر الله	رسم مصطفى الحلبى

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 01412 3932
BP166.23 G48 1978
al-´¿ikmah